سـورة (عـبـس) دراسة موضوعية

إعداد الدكتور

محمد بن جمعة بن أحمد العمراني

تخصص التفسير وعلومه، قسم الدراسات الإسلامية

الكلية الجامعية بحقل، جامعة تبوك

المملكة العربية السعودية

سـورة عـبـس دراسة موضوعية

محمد بن جمعة بن أحمد العمراني

تخصص التفسير وعلومه، قسم الدراسات الإسلامية، الكلية الجامعية بحقل، جامعة تبوك، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني: M_alomrani@ut.edu.sa

الملخـص:

يتناول هذا البحث دراسة سورة عبس دراسة موضوعية، حيث يسلط الضوء على التعريف بالسورة وموضوعاتها تعريفًا شموليًا، وتفسير آياتها تفسيراً موضوعيًا مع إبراز ما فيها من معاني ودلالات. ويهدف البحث إلى الخروج بفهم سليم ومتكامل لآيات السورة، وربطها بالواقع الذي تحياه الأمة، وبيان منزلة القرآن الكريم وجلالة قدره، وبيان أحوال الناس يوم القيامة وأقسامهم.

واستخدم الباحث المنهج التحليلي في تفسير الآيات القرآنية، والمنهج الاستدلالي في عرض الأمثلة والشواهد.

وخلصت نتائج البحث إلى: أن لسورة عبس عدة أسماء كلها اجتهادية ما عدا اسم (عبس) فإنه توقيفي، وأنه لم يرد في فضل السورة حديث صحيح صريح، وأن لفظة "عبس" وما يشتق منها وردت في ثلاث سور مكية وكلها دعوية، وأن على (الداعي) ألا يفرق في دعوته بين غني وفقير، وأن يكون صاحب خلق كريم في أقواله وأفعاله، وأن يقتدي بالملائكة الكرام في طاعته لربه –عز وجل–وأن الإماتة والإقبار من النعم التي امتن الله –عز وجل–بها على ذلك الإنسان، وأن خاتمة السورة جاءت مناسبة للسورة، حيث قرر مطلعها حقيقة الميزان وخاتمتها نتيجته.

الكلمات المفتاحية: سورة عبس، دلائل الوجوه، التفسير الموضوعي.

Surat Abasa
An Objective Study

By: Mohammed Bin Jumaa Bin Ahmed Alomrani
Majored in Interpretation and its Sciences
Department of Islamic Studies
University College of Haql
Tabuk University
Kingdom of Saudi Arabia

Abstract

This research examines Surat Abasa throughout an objective study as it highlights and identifies Surat Abasa and the topics it handles in a comprehensive way. It also interprets the verses objectively emphasizing the meanings and significances contained. Hence, the research aims at achieving a true and comprehensive understanding of the verses by relating them to the real life of the nation. In addition, the research is keen on stressing the great and sacred status of the Holy Qur'an as well as the circumstances of people on the day of judgement and their classifications. The researcher has utilized the analytical approach to interpret the Qur'anic verses and the evidentiary approach to examine evidence and introduce examples. The research concludes with the most outstanding findings. For example, Surat Abasa has many discretional names except for the name (Abasa) which is known to be confined to this Sura. There has not been a single narrated Hadith talking about the merits of this Sura. The word (Abasa) and its derivatives have been stated in three Meccan Suras and all of them are related to the field of mission. The preacher should not differentiate in between a rich and a poor man. He should also be of a good conduct both in his deeds and sayings. Moreover, he should also follow angels as a good example in their obedience to Almighty Allah. Life and death constitute a kind of bliss prescribed by Allah for all mankind. Finally, the end of the Sura is compatible with its content as its beginning identifies the truth of the measure and its end refers to the results.

Key words: Surat Abasa, existential evidence, objective interpretation.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمـــة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين، وبعد:

"فإن تخصيص موضوع بالبحث والدراسة، وجمع أطرافه والاطلاع على أسباب نزول الآيات المتعلقة به، كل ذلك يهيئ للموضوع جواً علمياً لدراسته بعمق، وشمولية تثري المعلومات حوله، ولا يتيسر هذا للباحث في أي نوع من أنواع التفسير إلا بالتفسير الموضوعي؛ لأنه هو الأسلوب الأمثل في بحث مثل هذه الأمور، كما أن تجدد حاجات المجتمعات وبروز أفكار جديدة على الساحة الإنسانية لا يمكن تغطيتها، ورؤية الحلول الصحيحة لها إلا باللجوء إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم" (١).

ولأجل هذا اخترت أن أساهم بشيء من المشاركة في هذا النوع المهم من التفسير، فاخترت سورة عبس محلاً للدراسة الموضوعية، والسر في اختيار هذه السورة: كونها تتحدث عن القرآن الكريم، وفي موضوع من موضوعاته، فما من موضوع يعرض له القرآن الكريم إلا وله من الأهمية ماله، كذلك: كونها تتحدث عن أفضل الدعاة إلى الله –عز وجل–، وهو نبينا محمد– عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فالحديث مبارك والمتحدث عنه كذلك، كما أنها تبرز أهمية العتاب اللطيف في تصويب الأخطاء، وتربية المسلم، وكذلك توجه الأنظار إلى التأمل في عظيم قدرة الله تعالى، وتبين أصناف الناس حيال النعم، وترتب الجزاء الأخروي؛ بناء على الاختيار الإنساني في الدنيا.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى ما يلي:

١– إبراز التفسير بحلة جديدة غير المتعارف عليها من ألوان التفسير، وربطه بالواقع الذي تحياه الأمة.

(١) ينظر: مصطفى مسلم، "مباحث في التفسير الموضوعي". (ط٧، دمشق، دار القلم، ١٤٣٠ هـ)، ٣١–٣٠.

٢- بيان أن القرآن الكريم هو حبل الله المتين ودستوره الخالد، ولا سبيل للنهوض إلا به، وإبراز دوره في علاج القضايا المعاصرة، وإيجاد الحلول لها.

٣- الخروج بفهم سليم لآيات سورة عبس بعد دراستها دراسة موضوعية.

٤- إعطاء الدعاة إلى الله –عز وجل–إضاءة مباركة، تنير لهم الطريق بعيداً عن الأفكار الهدامة التي لا تليق بالدعاة.

الدراسات السابقة:

هناك دراسات حول سورة عبس، من الناحية البلاغية واللغوية والتحليلية، وتناولت تلك الدراسات لكثير من قضايا سورة عبس، ومن خلال بحثي في كثير من المصادر البحثية، لم أطلع على دراسة تفسيرية موضوعية خاصة بسورة عبس إلا دراسة واحدة يصدق عليها أن أقول إنها دراسة موضوعية وهي بعنوان "موسوعة التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم –سورة عبس" لنخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن، بإشراف أ. د مصطفى مسلم، جامعة الشارقة، ١٤٣١ هـ، وتحتوي هذه الدراسة على مبحثين: أولاً: بين يدي السورة. ثانيًا: التفسير الإجمالي لمقاطع السورة.

أما ما تتقاطع فيه دراستي مع هذه الدراسة: فهو مبحث (بين يدي السورة) مع زيادة في بعض المطالب في دراستي، والتي لم تذكر في هذه الموسوعة، وكذلك الاختلاف في التسمية، حيث سميته، (سورة عبس لمحة تعريفية شمولية)، إضافة إلى أن هذه الدراسة جاءت مختصرة، وهي عبارة عن تفسير إجمالي للآيات، وأما ما تتميز به دراستي عن هذه الدراسة: فهو ذكر مباحث أخرى لم تتعرض لها هذه الدراسة، مثل: مبحث آيات القرآن الكريم بين إجلال القدر وحكمة التنزيل، وكذلك: مبحث الطبيعة الإنسانية والدعوة إلى التأمل والاعتبار، ومبحث: الإنسان في القيامة بين دلائل الوجوه وهول الفرار.

وهناك دراسة أخرى بعنوان: "منهجيات في الإصلاح والتغيير في ضوء سورة عبس دراسة موضوعية تطبيقية) للباحثة: ابتسام ديب سمور، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية بغزة، فلسطين، ٢٠١١م، يتضح من عنوان هذه الدراسة أنها لا تتناول دراسة سورة عبس دراسة موضوعية، وإنما تدرس موضوعًا من موضوعاتها وهو الإصلاح والتغيير في ضوء سورة عبس، وهذا لا يعتبر من وجهة

نظري دراسة موضوعية للسورة إذا ما عرفنا أن التفسير الموضوعي يدرس السورة ولا يدرس موضوعًا من موضـوعاتها. وتتميز دراسـتي عن هذه الدراسـة بذكر مباحث لم تتعرض لها هذه الدراسـة، مثل: مبحث آيات القرآن الكريم بين إجلال القدر وحكمة التنزيل، وكذلك: مبحث الطبيعة الإنسـانية والدعوة إلى التأمل والاعتبار، ومبحث: الإنسان في القيامة بين دلائل الوجوه وهول الفرار.

وهناك دراسات أخرى للسورة، لكنها دراسات لغوية أو بلاغية أو تحليلية ليس لها علاقة بالتفسير الموضوعي، أذكرها على سبيل الاختصار وهي كما يلي:

أولاً: (سـورة عبس دراسـة في السـياق والدلالة)، حيدر خشـان ياسـين، بحث في مجلة الدراسـات المستدامة، السنة الثانية، المجلد الثاني، العدد السابع، ٢٠٢٠م.

ثانياً: (محاور الخطاب القرآني في سـورة عبس) للباحثة د. وسـن محمود لطيف، بحث في مجلة مداد الآداب، العدد السابع.

ثالثاً: (جماليات التركيب والإيقاع في سـورة عبس) للباحث د. عمر بن عبد العزيز المحمود، بحث في مجلة العلوم العربية، العدد الخامس والثلاثون، ١٤٣٦ هـ،

وهذه الدراسات -كما هو واضح من عناوينها-هي دراسات لغوية بلاغية، أكثر منها دراسة تفسيرية موضوعية، وليس لها علاقة مباشرة بموضوع دراستي، وستكون هذه الدراسات من ضمن مراجع هذا البحث بإذن الله تعالى.

وقد قسمت البحث إلى مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة.

أما المقدمة: فذكرت فيها أهمية البحث، وأهدافه، والدراسات السابقة له.

وأما التمهيد: فعنوانه: سورة عبس لمحة تعريفية شمولية.

وأما المبحث الأول: فعنوانه: المطلع وحسن العتاب.

وأما المبحث الثاني: فعنوانه: آيات القرآن الكريم بين جلال القدر وحكمة التنزيل.

وأما المبحث الثالث: فعنوانه: الطبيعة الإنسانية والدعوة إلى التأمل والاعتبار.

وأما المبحث الرابع: فعنوانه: الإنسان في القيامة بين دلائل الوجوه وهول الفرار.

وأما الخاتمة: فذكرت فيها أهم نتائج البحث، وتوصياته، وفهارسه العلمية، ومصادره، وقد سميت هذا البحث: بـ(سورة عبس – دراسة موضوعية).

وفي الختام: إني لأرجو أن ينفع هذا البحث كاتبه، وقارئه في الدنيا والأخرة؛ إنه جوادٌ كريم، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التمهيد

سورة عبس لمحة تعريفية شمولية

١-أسماء السورة:

اشتهرت هذه السورة باسم (عبس)، في المصاحف، وكتب التفسير، والسنة[١]، لورود هذا الوصف في بدايتها، وتسمية السورة بهذا الاسم توقيفي؛ لوروده في حديث ابن مسعود ﷺ: أن رجلاً قال له: إني أقرأ المفصل في ركعة، قال: أهذا كهذ الشعر ونثراً كنثر الدقل؟، لكن رسول الله ﷺ كان يقرأ النظائر، السورتين في ركعة.... ثم قال وويل للمطففين وعبس في ركعة ...الحديث [٢]، وقد ورد لها أسماء أخرى كلها اجتهادية: فسميت بسورة (ابن أم مكتوم)، ولم ترد هذه التسمية عند أحد من المفسرين إلا ابن العربي [٣]، على ما أعلم -، كما سميت بسورة (السفرة) [٤]، وسميت بسورة (الصاخة) [٥]، وهي من أسماء يوم القيامة، كما سميت بسورة (الأعمى) [٦]، وهو ابن أم مكتوم، ولعلها سميت بهذه الأسماء الثلاثة الأخيرة إما لكونها ألفاظًا لم تقع في غيرها من السور، أو بصاحب القصة التي كانت سبب نزولها.

٢-مكية السورة أو مدنيتها، وترتيب نزولها:

سورة عبس سورة مكية، وقد أجمع أهل التفسير على ذلك، يقول ابن عطية: "وهي سورة مكية

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور، " التحرير والتنوير". (الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م). ٣٠: ١٠١.

(٢) سليمان بن الأشعث السجستاني، "سنن أبي داود". تحقيق: محمد محي الدين، (بيروت، المكتبة العصرية)، كتاب الصلاة، باب تحزيب القرآن، ح ١٣٩٦، ٢:٥٦، وحكم الألباني: صحيح. صحيح وضعيف سنن أبي داود، الألباني، محمد ناصر الدين، الصحيحة (١٣٩٦).

(٣) ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٣٠:١٠١.

(٤) محمد بن علي الشوكاني، "فتح القدير".، تحقيق: يوسف الغوش، (ط٢، بيروت، دار المعرفة، ١٤٢٥ هـ)، ٥:٥٣٣؛ انظر: شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي، "روح المعاني". تحقيق: علي عبدالباري، (ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥ ١٥:٢٤١ ،(هـ.

(٥) ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٣٠:١٠١.

(٦) المرجع السابق، ٣٠:١٠١.

بإجماع المفسرين"[١]، وأما بالنسبة لترتيبها في النزول فهي السورة الرابعة والعشرون، نزلت بعد سورة (النجم) وقبل سورة (القدر)، وهي من أولى السور من أواسط المفصل [٢].

٣-عدد آيات السورة، وكلماتها وحروفها:

عدد آيات سورة عبس عند العادين أربعون آية في الشامي، وإحدى وأربعون عند أبي جعفر والبصري، واثنتان وأربعون في عدد الباقين، ويعود هذا الاختلاف في ثلاث آيات: ﴿ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾، لم يعدها البصري والشامي، وعدها الباقون، ﴿ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾، لم يعدها أبو جعفر وحده، وعدها الباقون وشيبه، ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾، لم يعدها الشامي، وعدها الباقون، وأما بالنسبة لكلمات السورة وحروفها فهي مئة كلمة، وخمسمائة وثلاثة وثلاثون حرفاً[٣].

٤-سبب نزول السورة:

وردت عدة أحاديث في سبب نزول سورة عبس، وهذه الأحاديث جاءت بروايات متفقة في أصل محتواها، ومختلفة في بعض تفاصيلها، وقد اتفقت الروايات مع اختلاف ألفاظها في أن المخاطب الذي عبس هو الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- باستثناء رواية واحدة ذكرت أن العابس هو رجل من بني أمية، وهذه الرواية مخالفة لما أجمع عليه أهل التفسير من أن العابس هو الرسول -صلى الله عليه وسلم-، واتفقت الروايات- كذلك- على أن هذه السورة نزلت في ابن أم مكتوم الأعمى[٤]، وقد نقل

---

(١) عبد الحق بن غالب ابن عطية، "المحرر الوجيز ". تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، (ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢ ٤٣٦ :٥ ،(هـ.

(٢) ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٣٠:١٠١.

(٣) عثمان بن سعيد أبو عمرو الداني، "البيان في عد آي القرآن". تحقيق: غانم قدوري الحمد، (ط١، الكويت، مركز المخطوطات والتراث، ١٩٩٤م)، ١:٢٦٤.

(٤) عبدالله بن شريح. وقيل: عمرو، وهو ابن أم مكتوم، من بني عبد غنم بن عامر بن لؤي، صحابي، (ت: ٢٣ هـ)، انظر: علي بن محمد ابن الأثير، "أسد الغابة في معرفة الصحابة". تحقيق: عادل عبد الموجود، (ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥ ٢٧٧ :٣ ،(هـ.

الإمام الرازي إجماع المفسرين على أن الذي عبس وتولى، هو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأن الأعمى هو ابن أم مكتوم[١]، ومن أبرز الروايات الواردة في سبب نزول هذه السورة :ما رواه الترمذي في سننه عن عائشة -رضي الله عنها-، قالت: أنزلت (عبس وتولى) في ابن أم مكتوم ،جاء إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله-ﷺ-رجل من عظماء المشركين، فجعل النبي -ﷺ- يعرض عنه -أي عن ابن أم مكتوم-ويقبل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأسـًا؟، فيقول لا، ففي هذا أنزل [٢]، وهذه الحادثة في سبب نزول هذه السورة هي التي وضحت معاني غامضة، حيث عرفنا من هو الأعمى، ومن الذي استغنى؛ فسبب النزول هو أكبر معين على تفسير الآية أو الآيات.

٥-فضائل السورة:

من خلال بحثي في كثير من المصادر والمراجع لم أجد حديثًا صحيحًا صريحًا ورد في فضل سورة عبس، إنما الذي ورد في فضلها إما أحاديث صريحة، ولكنها في نفس الوقت غير صحيحة، وإما أحاديث صحيحة لكنها غير صريحة حيث أستطيع أن أقول: إنها عامة تشمل السورة وغيرها، ومن ذلك ما روي عن واثلة بن الأسقع-رضي الله عنه-قال: قال النبي -ﷺ-" أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، ومكان الزبور المئين، ومكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل"[٣]، وهذه السورة الكريمة من

(١) محمد بن عمر بن الحسن الرازي، "مفاتيح الغيب". (ط٣، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠ هـ)، ٣١:٥٣.

(٢) محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي، "سنن الترمذي". تحقيق: أحمد شاكر وأخرون، (ط٢، مصر، مطبعة البابي الحلبي،١٣٩٥ هـ)، كتاب التفسير، باب ومن سورة عبس، ح٣٣٣١، ٥:٤٣٢. قال الترمذي: هذا حديث غريب، وروى بعضهم هذا الحديث عن هشام بن عروة عن أبيه، قال: " أنزل عبس وتولى في ابن أم مكتوم، ولم يذكر فيه عن عائشة"، وحكم الألباني: صحيح الإسناد، صحيح وضعيف سنن الترمذي، الألباني، الصحيحة (٣٣٣١).

(٣) سليمان بن داوود الطيالسي، "مسند أبي داود الطيالسي". (ط١، مصر، دار الهجرة، ١٤١٩ هـ)، ح ١١٠٥، ٥:٣٥١. وحسنه الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، (ط٥، الرياض، مكتبة المعارف)، كتاب قراءة القرآن، الترغيب في قراءة سورة الفاتحة وما جاء في فضلها، ح ١٤٥٧، ٢:٨٦.

المفصل الذي فضل به النبي -صلى الله عليه وسلم- سائر الأنبياء.

٦-أغراض السورة ومقاصدها:

استقت سورة عبس مقاصدها العظيمة، من مقاصد القرآن الكريم الأساسية، فهي سورة تقرر العقيدة الصحيحة بإقامة الأدلة على وحدانية الله، بخلق الإنسان، والنظر في طعامه وشرابه، وإثبات البعث، وذكر أهوال يوم القيامة، وتؤكد على مبدأ التسوية بين الناس في الدعوة إلى الله، وتبين كيفية تعليم الله رسوله -ﷺ- الموازنة بين مراتب المصالح، ووجوب الاستقراء لخفياته، وتذكر شرف القرآن وتبين أنه موعظة لكل من تدبره وفهمه، وتنوه بضعفاء المؤمنين، وأنهم أعظم عند الله من أصحاب الكفر والفجور، وتبين انقسام الناس في الآخرة إلى سعداء وأشقياء [١].

٧-المحور الرئيس للسورة:

يدور محور سورة عبس حول تصحيح فكر الداعية بما يلائم قيمة الدعوة وتوجيهها، وكذلك "تصحيح القيم الإنسانية"، ووضع الأسس الإسلامية لأقدار الناس وأوزانهم، وتؤكد أن قيمة الإنسان بعمله وسلوكه، ومقدار اتباعه لهدي السماء [٢]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣).

٨-المناسبات في السورة:

أ-المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

في اسم السورة إشارة إلى إعراض النبي -ﷺ- عن الأعمى؛ لانشغاله بدعوة بعض أشراف قريش

---

(١) إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي، "مصاعد النظر للأشراف على مقاصد السور". (ط١، الرياض، مكتبة المعارف، ١٤٠٨ هـ)، ١٥٧:٣؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٠٢:٣، شرف الدين، جعفر، "الموسوعة القرآنية خصائص السورة". تحقيق: عبدالعزيز التويجري، (ط١، بيروت، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ١٤٢٠ هـ)، ٧١:١١.

(٢) عبدالله محمود شحاته، "أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم". (الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٩م)، ٣٤:٤؛ وانظر: نخبة من علماء التفسير، "التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم". ط١، الشارقة، جامعة الشارقة، ١٤٣١ ١ :٣٨، (هـ.

وصـناديدهم، فنزلت السـورة تبين ما ينبغي أن يكون عليه الأسـلوب الدعوي، وهو ما يتفق ومحور السورة الكريمة [١].

ب-المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

عند البحث عن المناسـبة بين افتتاحية السـورة بخاتمتها، نجد أن المناسـبة تظهر واضـحة جلية عندما نتأمل في مطلع السـورة وخاتمتها، حيث يتبين لنا أن الحديث في مطلع السـورة الكريمة كان عن حال فريقين من الناس، الفريق الأول المقبل على الحق السـاعي إليه متمثلاً في الرجل الأعمى (عبد الله بن ام مكتوم)، والفريق الثاني البعيد عن الحق المسـتغني بنفسـه عن الهداية، فجاءت نهاية السـورة تصف حال الفريقين، ومصيرهما، فالفريق الأول هو صاحب الوجه المنير الفرح المسرور في الأخرة، والـذي يتمثـل بقولـه تَعَـالَىٰ:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾(عبس: ٣٨-٣٩)، وأمـا الفريق الثاني فهو صـاحب الوجه الذي عفر بالغبار ،وغشـاه الكرب والغم والحزن، والذي يتمثل بقوله تَعَـالَىٰ:﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾(عبس: ٤٠ -٤٢)، وبذلك ظهر لنا التناسق بين خاتمة السورة الكريمة مع مطلعها في الحديث عن الفريقين.

ج-مناسبة السورة لما قبلها:

إن المتأمل في سورة النازعات وسورة عبس يلاحظ التشابه الكبير والتعانق المتناسق بين السورتين في المقاطع والآيات؛ حيث ورد في كلتا السـورتين إثبات البعث، ففي سـورة النازعات أثبت الله البعث بخلق السماء والأرض والجبال، وفي سورة عبس أثبته بخلق الإنسان والنبات والطعام.

وكذلك ذكر الله في كلتا السورتين ضـرورة الدعوة إلى الله-ﷻ-حيث جاءت قصـة موسـى -عليه السلام-مع فرعون عندما أرسل الله إليه موسى -عليه السلام-ليدعوه، لكن فرعون جحد واستكبر عن أمر خالقه،﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾(النازعات: ٢١)، فجاءت سـورة عبس؛ لتوضـح للرسـول -صـلى الله عليه وسـلم- أن سـادة القوم وكبراءهم إن لم يؤمنوا فلن يؤثروا في الدعوة، ولا يجوز الانشـغال بهم عن

(١) نخبة من علماء التفسير، "التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم". ٩:٣٩.

غيرهم من المستضعفين المقبلين على العلم والمعرفة[١].

وفي كلتا السورتين جاءت النهاية بذكر يوم القيامة: حيث جاء في سورة النازعات بيان مصير الفريقين دون تفصيل، وجاءت سورة عبس تفصل وتبين ما يكون في ذلك اليوم العظيم، وجاء في النازعات وصف القيامة بالطامة، وفي عبس بالصاخة وهما من أسماء يوم القيامة [٢]، وخصت النازعات بالطامة، لأن الطم قبل الصخ، فكانت هي السابقة، وخصت عبس بالصاخة، لأنها بعدها وهي اللاحقة [٣].

د-مناسبة السورة لما بعدها:

لما ختمت سورة عبس بوصف أهوال يوم القيامة، وفرار الإنسان من أقرب الناس إليه، والوعيد الشديد للكفرة الفجرة بالصاخة؛ لإنكارهم للقرآن والبعث، أردفها بسورة التكوير المشتملة على أمارات يوم القيامة وعلامات يوم الجزاء [٤]، وما يكون فيه من تغيير هائل يعتري الموجودات، ويفاجأ الإنسان بعالم جديد، حتى كأنه يرى القيامة رأي العين [٥].

هـ-المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

لما ذكر -ﷺ-في أخر سورة النازعات قوله -عز وجل-: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن

(١) عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، "أسرار ترتيب القرآن الكريم". (دار الفضيلة للنشر والتوزيع)، ١:١٥٣؛ عبد الكريم بن يونس الخطيب، "التفسير القرآني للقرآن". (القاهرة، دار الفكر العربي)، ١٦:١٤٤٦؛ سعيد حوى، "الأساس في التفسير". (ط٦، القاهرة، دار السلام، ١٤٢٤ هـ)، ١١:٧١؛ ونخبة من علماء التفسير، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ٩:٣٩.

(٢) وهبه بن مصطفى الزحيلي، "التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج". (ط٢، دمشق، دار الفكر المعاصر،١٤١٨ ٣٠:٥٦ ،(هـ.

(٣) محمود حمزة الكرماني، "أسرار التكرار في القرآن". تحقيق: عبد القادر أحمد، (دار الفضيلة)، ١:٢٤٥.

(٤) الزحيلي، "التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج". ٣٠:٧٩.

(٥) إبراهيم عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". (القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة)، ١:١٥٣،

يَخْشَىٰهَا ﴾(النازعات:٤٥)، ذكر بعدها في سورة عبس من الذي ينتفع بهذا الإنذار، ومن الذي لا ينتفع، وهم الذين لم يتزكوا مع إقبال الرسـول –صـلى الله عليه وسـلم–عليهم ومناجاته لهم في أمر الإسـلام يدعوهم إليه [١]، فالصلة في غاية الوضوح بين نهاية سورة النازعات، وبداية سورة عبس.

(١) انظر: محمد يوسـف، أبو حيان الأندلسـي، "البحر المحيط في التفسـير". تحقيق: صـدقي محمد جميل، (ط١، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٠ ١٠:٤٠٦ ،(هـ؛ وانظر: شـهاب الدين محمود الألوسـي، "روح المعاني". تحقيق: علي عبد الباري، (ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ)، ١٥:٢٤١.

المبحث الأول

المطلع وحسن العتاب

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ (عبس: ١ – ١٠).

القرآن الكريم كلام الله وحده، وليس كلام أحد من خلقه، يظهر ذلك جليًا عندما نتأمل في هذه الآيات الكريمة وغيرها من آيات سور القرآن التي ورد فيها معاتبة الله –عز وجل–لنبيه محمد –صلى الله عليه وسلم–ولو كان هذا القرآن من كلام نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم–لما أدان نفسه بهذا العتاب، ولما سجل عليها أمثال هذه الآيات التي نبهه الله –عز وجل–من خلالها على بعض الأمور التي يكون في بعضها حرج عليه، ولو كان كاتمًا شيئًا من القرآن لكتم بعض هذه الآيات المشتملة على العتاب له وتنبيهه على بعض ما كان الأولى به أن لا يفعله.

يقول القاسمي بعد أن ذكر قوله تعالى ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴾ (عبس: ١ – ٢) –: "في هذه الآيات ونحوها، دليل على عدم ظنه –صلى الله عليه وسلم–بالغيب. قال زيد: كان يقال: لو أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–كتم من الوحي شيئًا، كتم هذا عن نفسه"[(١)]. والمتتبع للآيات التي ورد فيها عتاب الله –عز وجل–لنبيه محمد –صلى الله عليه وسلم–يجد أنها جاءت في خمسة مواضع من القرآن الكريم[(٢)]: حيث جاء الموضع الأول في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ .....الآية ﴾ (الأنفال:٦٧)، والموضع الثاني في قوله تعالى: ﴿ عَفَا

(١) محمد جمال الدين القاسمي، "محاسن التأويل". تحقيق: محمد باسل، (ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ)، ٤٠٦: ٩.

(٢) بدر الدين محمد الزركشي، "البرهان في علوم القرآن". تحقيق محمد أبو الفضل (ط١، بيروت، دار أحياء الكتب العربية، ١٣٧٦هـ) ٢: ١٣.

ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ ﴾ (التوبة: ٤٣)، والموضع الثالث في قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ ....الآية ﴾ (الأحزاب: ٣٧)، والموضع الرابع في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ ﴾(التحريم: ١)، والموضع الخامس في قوله تعالى:﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴾(عبس: ١ - ٢).

والذي يعنينا من هذه المواضع، الموضع الأخير وهو قوله -عز وجل-﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴾(عبس:١ -٢)، إلى أخر آيات العتاب، حيث نقف مع المعاتبة الربانية لنبي الهدى-ﷺ- بشأن ذلك الصحابي الجليل ابن أم مكتوم، الذي عبس النبي -صلى الله عليه وسلم في وجهه، وأعرض عنه؛ بسبب انشغاله بدعوة صناديد قريش للإسلام، وتذكيرهم بأيام الله، وتحذيرهم بطشه وجبروته.

ومما تجدر الإشارة إليه أن لفظة (عبس)، وما يشتق منها وردت في القرآن الكريم ثلاث مرات، في ثلاث سور:

وكل السور التي وردت فيها اللفظة ومشتقاتها مكية، إلا سورة واحدة، وهي سورة الإنسان مختلف فيها. والصحيح أنها مكية لوضوح ذلك من سياقها وأسلوبها [١]، قال القرطبي: "وهي مكية"[٢]، وقال ابن كثير: "سورة الإنسان مكية"[٣].

وقد وردت هذه اللفظة (عبس) وما يشتق منها في عدة مواضع من سور القرآن الكريم وهي كما يلي:

---

(١) انظر: ابن عاشور، "التحرير والتنوير". ٢٩: ٣٧٠؛ وانظر: نخبة من علماء التفسير، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ٩: ٥٠٦.

(٢) محمد بن أحمد القرطبي، "الجامع لأحكام القرآن". تحقيق: أحمد البردوي (ط٢، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٣٨٤ ،١٩: ١١٨ ،(هـ.

(٣) إسماعيل بن عمر بن كثير، "تفسير القرآن العظيم". تحقيق: سامي سلامة، (ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ) ٤: ٥٠١.

١-تحدثت آيات من سورة المدثر عن فرد من المكذبين، وهو الوليد بن المغيرة، وقد سجلت هذه الآيات النتيجة السخيفة المضحكة التي خرج بها ومن معه، ووصفته بصفات منكرة تثير السخرية من حاله وملامح وجهه وهي قوله تَعَالَىٰ:﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾(المدثر:٢٢).

٢-ذكرت آيات من سورة الإنسان صفات الأبرار الذين ينالون الكرامات ويفوزون باللذات، وبينت الأعمال التي بها نالوا الثواب العظيم، ومنها خوفهم واشفاقهم من هول هذا اليوم العبوس القمطرير قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ (الانسان:١٠).

٣-عرضت آيات من سورة "عبس" إلى قصة الأعمى ابن أم مكتوم الذي جاء يسأل النبي -ﷺ-عن شيء ويلح عليه، وعند رسول الله -ﷺ-رجل من عظماء المشركين، فأعرض عنه -ﷺ-وعبس في وجهه وتولى، وأقبل على الأخر، ثم نزل قول تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾(عبس:١).

هذه مجموع المواضع التي ذكرت فيها لفظة (عبس) وما يشتق منها في سور القرآن الكريم، وعندما نمعن النظر في الآيات الثلاثة من السور الثلاثة، التي ورد فيها لفظة (عبس) وما يشتق منها، فسوف نخرج من ذلك ببعض اللطائف والدلالات ومنها:

١ – السور الثلاثة سور مكية.

٢ – السور المكية الثلاثة سور دعوية، وهي المدثر، والإنسان وعبس؛ لأنها تتحدث عن دعوة الأعداء للإسلام.

فسورة المدثر نزلت بعد الجهر بالدعوة وإيذاء المشركين للنبي -صلى الله عليه وسلم-وآياتها تتحدث عن دعوة شخص معين هو الوليد بن المغيرة، وسورة الإنسان نزلت بعد الجهر بالدعوة كذلك، وآياتها ترتكز على تذكير الإنسان بأصله، ومصيره في الدارين، وإظهار نعيم الجنة؛ تثبيتًا للمؤمنين ودعوة للكافرين [١]، وسورة عبس نزلت بعد أن أتى الأعمى ابن أم مكتوم للنبي -صلى الله عليه وسلم-وهو يناجي صناديد قريش ويدعوهم إلى الله تعالى، ويرجوا إسلامهم، وعلى رأسهم

(١) انظر: نخبة من علماء التفسير، "المختصر في التفسير". (مركز تفسير للدراسات القرآنية، الإصدار ١٣): ٥٧٨.

كبيرهم الوليد بن المغيرة، وآياتها تتحدث عن دعوته لهم وإقباله عليهم.

٣-وورود لفظة (عبس) وما يشتق منها في ثلاث سور مكية دعوية يشير إلى عمق الخط الدعوي في شخصية وسيرة النبي -صلى الله عليه وسلم-. وعنوان سيرة الرسول -صلى الله عليه وسلم-هو: "سيرة نبي إمام داعية". ولا تعارض بين كون النبي -ﷺ-إمام الدعاة، وأنه بعث بالدعوة، وبين كونه رحمة للمدعوين، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ... ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وبعد أن ذكرنا مجموع المواضع التي ذكرت فيها لفظة (عبس) وما يشتق منها في سور القرآن الكريم، نقف وقفة تأمل مع قوله تعالى﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾(عبس: ١ -٤)، حيث نلحظ أن هذه السورة الكريمة افتتحت بفعلين محتملين لضمير لا معاد له في الكلام، ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ ؛ تشويقًا لما سيرد بعدهما، ودلالة على أن ما بعدهما حدث عظيم، فكان الحدث العظيم، عبوس النبي-ﷺ-في وجه الأعمى -ابن أم مكتوم، وإعراضه عنه حين جاء طالبًا للعلم والتزكية، فعاتب الله نبيه -صلى الله عليه وسلم-على ذلك(١).

والمتأمل في قوله تعالى:﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾(عبس: ١ -٤)، يجد أن هاتين الآيتين هما مطلع السورة، وفيهما إخبار من الله -عز وجل-عن نبيه -صلى ا لله عليه وسلم-أنه قطب في وجه الأعمى الذي جاء يسترشده عن بعض أمور دينه، والمتبصر في هذا الخطاب القرآني يجد أن المقصود به لا يقف عند مجرد الإخبار عما حدث في تلك اللحظة، وإنما المقصود بالدرجة الأولى هو عتاب النبي -صلى الله عليه وسلم-على هذا الفعل، وتأنيبه بسبب تلهيه عن هذا الأعمى والانشغال بغيره.

وبالتالي نلاحظ أن هذا الخطاب القرآني الذي حمل في طياته ذلك العتاب جاء بضمير الغائب، حيث قال تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾(عبس:١)، والتعبير بضمير الغيبة من الأساليب الفريدة التي ابتدأت به هذه السورة، ويمكننا التعرف على ما يحمله هذا الأسلوب من أهداف مختلفة جيء بضمير الغائب

(١) ابن عاشور، "التحرير والتنوير". ١٠٣:٣٠.

لأجلها، منها عدم مواجهة النبي-ﷺ-بالعتاب، رفقًا وتلطفًا وتوددًا ورأفة به، وذلك لما في المشافهة ما لا يخفى، وكي لا يفاجئه بالعتاب، ويقع في نفسه مدرجًا، وذلك أهون، ومنها تكريم له -عليه الصلاة والسلام-من الله تعالى، وحماية لذاته الشريفة من أن يواجه بالعتب واللوم، وأن تلتفت إليه الأنظار وهو في موضع العتاب، ومنها: بيان مقامه -عليه الصلاة والسلام - وأنه أشرف مقام، وأسماه، دل على ذلك أسلوب عتاب الله له، حيث خاطبه بضمير الغائب، حتى لا يواجهه بالخطاب فيؤلمه، ثم أقبل عليه بعد أن أزال الوحشة بالخطاب المباشر، ومنها: أن الله عتب للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يعتب عليه كما قيل، لأنه حمل نفسه فوق طاقته، حيث اختار الإنسان الأصعب والمعاند والكافر، والله تعالى عندما قال: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾(عبس:١)، إنما أراد وصف النبي -صلى الله عليه وسلم-ولم يرد تقيما، ومنها: تصحيح مسار الدعوة، ولتوجيهه الأفضل والأمثل في الدعوة؛ ليكون له منهجًا[1]، وللدعاة، والمعلمين، والمربين، والمرشدين، والمصلحين، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر من بعده، تجاه من استجاب للدعوة، ومن لم يستجب.

ولما ذكر الله -سبحانه وتعالى-عبوس النبي-ﷺ-وإعراضه، بين هنا السبب الذي جعله يعبس ويتولى، وصفة الرجل المعبوس في وجهه، وهو ابن أم مكتوم -رضي الله عنه-، فقال تعالى:﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴾(عبس:٢-١)، وفي وصفه ب(الأعمى)، تأكيدٌ للعتاب، ومزيد تأنيب للنبي -عليه الصلاة والسلام -، وذلك لأن العمى يجلب شفقة ورحمة الأخرين إلى من ابتلي به، لا العبوس والتولي، كما أن في هذا الوصف بيان عذر لابن أم مكتوم -رضي الله عنه-في مقاطعته لكلام النبي -صلى الله عليه وسلم-أثناء دعوته لمشركي مكة وأسيادهم.

ولهذا أشار جمع من المفسرين في تفاسيرهم إلى أن التعرض لذكر عمى ابن أم مكتوم في الآية

(١) الألوسي، "روح المعاني". ١٥:٢٤٢؛ الخطيب، "التفسير القرآني للقرآن"، ١٦:١٤٤٦؛ جابر بن موسى، المعروف بأبي بكر الجزائري، "أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير". (ط٥، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكمة،١٤٢٤ هـ)، ٥:٥١٨.

السابقة، إما لتمهيد عذره في الإقدام على قطع كلامه -عليه الصلاة والسلام- وتشاغله بالقوم، والإيذان باستحقاقه بالرفق والرحمة، وإما لزيادة الإنكار، كأنه قيل: تولى لكونه أعمى [١].

وقد ذكر بعض أهل اللغة والتفسير: أن هناك فرقًا واضحًا بين الفعل (جاء) والفعل (أتى) عند ورودهما في القرآن الكريم، حيث يستعمل فعل (المجيء)؛ للدلالة على الصعوبة وشدة المشقة، وأما فعل (الإتيان) فيستعمل؛ للدلالة على المجيء بيسر وسهولة [٢].

ولعل التعبير (بالمجيء) في قوله تعالى: ﴿ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾(عبس:٢)، يؤيد من صحة هذا الاستنباط، حيث يظهر من حال هذا الأعمى أنه لم يبلغ مكان النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يصل إليه إلا بعد تعب شديد، وعناء كبير، ومشقة فائقة؛ لأنه أعمى البصر فلا يرى الطريق، أو لأنه كان يخاف من الهوام والسباع التي قد تعترض طريقه، أو خشيته على نفسه من أذى الأعداء، أو غير ذلك من الأمور الصعبة التي تجاوزها للوصول إلى هدفه ومقصده، فمع صعوبة الوصول وشرف الهدف يتأكد العتاب الذي ورد في مطلع السورة الكريمة.

ويلاحظ أن الله -عز وجل- ذكر ابن أم مكتوم بصفة العمى في قوله تعالى: ﴿ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ (عبس:٢)، ليظهر المعنى الذي شأن البشر احتقاره، وبين أمره بذكر ضده من غنى ذلك الكافر، وفي ذلك دليل على أن ذكر هذه العاهات متى كانت المنفعة أو لأن شهرتها تعرف السامع صاحبها دون

(١) انظر: ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي، "أنوار التنزيل وأسرار التأويل". تحقيق: محمد المرعشلي، (ط١، بيروت، دار إحياء التراث الإسلامي، ١٤١٨ ٥:٢٨٦ ،(هـ؛ وانظر: محمد مصطفى أبو السعود، "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم". (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، ٩:١٠٧،

(٢) الحسين بن محمد الأصفهاني، "المفردات في غريب القرآن". تحقيق: صفوان الداودي، (ط١، دمشق، دار القلم،١٤١٢ ١:٢١٢ ،هـ؛ انظر: فاضل بن صالح السامرائي، "لمسات بيانية في نصوص من التنزيل". (عمان، دار عمان، ١٤٢٣هـ) ٢٤٢.

لبس جائز، ومتى ذكرت هذه الأشياء على جهة التنقيص فتلك الغيبة [١]، حيث ورد عن عائشة -رضي الله عنها-، أنها قالت: قلت للنبي-صلى الله عليه وسلم-: حسبك، من صفية كذا وكذا، تعني قصيرة، فقال: "لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته"[٢].

ثم بعد ذلك خاطب -ﷺ-نبيه الكريم -عليه الصلاة والسلام -بقوله: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ (عبس:٣-٤)، حيث انتقلت هذه الآية وما بعدها انتقالاً بلاغياً رائعاً من أسلوب الغيبة إلى الخطاب الذي فيه معنى العتاب، وهو ما يسمى في البلاغة -بفن-الالتفات[٣].

فبعد أن قال -ﷺ-: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾(عبس:١)، بضمير الغيبة الذي يحمل في طياته الرفق والتعظيم لمقام نبينا الكريم جاء بعدها بقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾(عبس:٣-٤)، بضمير الخطاب الذي يحمل في طياته الإقبال بعد الإعراض، ولهذا يرى الألوسي -: "أن ضمير عبس وما بعده للنبي-ﷺ-، وأن في التعبير عنه-بضمير الغيبة إجلالاً له لأنه لا يصدر عنه-ﷺ-، كما أن في التعبير عنه بضمير الخطاب في قوله:﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾(عبس:٣)، إيناساً بعد إيحاش، وإقبالاً بعد إعراض"[٤].

وجاء قوله ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾(عبس:٣-٤)، بإسلوب الاستفهام الذي جاء بعد وصف القرآن الكريم للحالة التي كان عليها النبي-ﷺ-من العبوس والتولي حين جاءه ابن أم مكتوم يسترشده عن بعض أمور دينه، فخاطب الله نبيه -صلى الله عليه وسلم-بقوله

(١) عبد الحق بن غالب بن عطية، الأندلسي، "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز". تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، (ط١، بيروت، دار الكتب العلمية،١٤٢٢ هـ) ٥:٤٣٧.

(٢) أخرجه أبو داود، "سنن أبي داود". كتاب الأدب، باب في الغيبة، ح ٤٨٧٥، ٥:١٩٢، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود، الألباني، ص٤٨٧٥.

(٣) وسن لطيف، "محاور الخطاب القرآني في سورة عبس". مجلة مداد الأدب، ٧، (٢٠١٠م): ١٠٢.

(٤) انظر: الألوسي، "روح المعاني". ١٥:٢٤٢.

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾، أي: أي شـيء يجعلك أيها النبي الكريم عالمـًا بحقيقة حال هذا الأعمى وأمره؟ ﴿ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾، أي لعله بسبب ما يتعلمه منك يتطهر ويتزكى، ويزداد نقاء وخشوعـًا لله رب العالمين، أو لعله يذكرُ أي: يتذكر ما كان في غفلة عنه، فتنفعه الذكرى أي: فتنفعه الموعظة التي سـمعها منك [١]، وفي الجمع بين التزكية والتذكر في هذا الاسـتفهام شـمول الخير الذي سـيحصـل له [٢]، يقول الرازي: "فلعل ذلك العلم الذي يتلقفه عنك يطهره عن بعض ما لا ينبغي، وهو الجهل والمعصـية، أو يشـغله ببعض ما ينبغي، وهو الطاعة [٣].

ثم فصل المولى-عز وجل-ما كان منه -صلى الله عليه وسلم-بالنسبة لهذه القصة فقال: ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾(عبس:٥-١٠). وعندما نتأمل في هذه الآيات الكريمة نلاحظ اسـتمرار الخطاب العتابي اللطيف الموجه إلى النبي الكريم -ﷺ-الذي بدأت به السورة، حيث تكشف لنا هذه الآيات حقيقة ما صدر عن النبي -صلى الله عليه وسلم-في هذه الحادثة، والسبب الذي نزلت لأجله هذه السورة، وعلة ذلك العتاب الذي وجهه الله -سبحانه وتعالى-لنبيه الكريم-ﷺ-، يتضح ذلك جليـًا حينما أقبل ابن أم مكتوم-رضي الله عنه-إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ راجيـًا التزكي والتذكر، فتلهى عنه -ﷺ-وانشغل بغيره، فقال تعالى: ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾(عبس:٥-٦)، حيث أقبل على ذلك الكافر الجاحد، وتصـدى له، ومال إليه حرصـًا منه على إسـلامه، مع أنه مسـتغن بماله وقوته وقومه ومركزه الاجتماعي، وزعامته عما عند النبي -صـلى الله عليه وسـلم-من الحق والإيمان والعلم النافع

(١) الشـوكاني، "فتح القدير". ٥:٤٦٢؛ محمد سـيد طنطاني، "التفسـير الوسـيط". (ط١، القاهرة، دار نهضـة مصر،١٩٩٧م)، ١٥:٢٨٣.

(٢) عمر بن عبد العزيز المحمود، "جماليات التركيب والإيقاع في سورة عبس". مجلة العلوم العربية، ٣٥، (١٤٣هـ) ٢٤٧٦.

(٣) الرازي، "مفاتيح الغيب". ٣١:٥٤.

والإحسان، ومن هنا كان إقبال الرسول-ﷺ-على صناديد كفار قريش وزعمائهم لا فائدة منه، ولا معول عليه، لأنه لا يرجى منهم الانتفاع بتلك الدعوة؛ فهم جاحدون مستكبرون، عازمون على الكفر والعناد.

فجاء القرآن الكريم منكراً على النبي -ﷺ-هذا التصرف، وموضحًا أنه ليس بيدك أيها النبي هدايتهم فما أنت إلا نذير فقال: ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾(عبس:٧)، فقد قمت أيها النبي بما أوجبه الله عليك من البلاغ، فلا يصل بك الحرص على إسلامهم بأن تتلهى عن المؤمنين. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ (الأنعام: ٥٢).

ثم انتقل السياق؛ ليبين لنا من هو الجدير بالرعاية والاهتمام والتكريم، ومن الذي يجب الالتفات إليه لينتفع بالذكرى فقال: ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾(عبس:٨-١٠)، "أي وأما من وصل إليك مسرعًا في المجيء، طالبًا للهدى، باحثًا عن علم نافع يقربه من الله -ﷻ- من أجل أن يزداد إيمانه، وحاله أنه يخشى الله تعالى ويخاف عقابه، لذا هو يطلب ما يزكي به نفسه؛ ليقيها العذاب والعقاب"(١).

ولعلنا نقف مع بعض الدلالات المستنبطة من هذه الآيات، ففي قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴾(عبس: ٨)، دلالة واضحة ورغبة صادقة صادرة من قلب ابن أم مكتوم -رضي الله عنه-، دفعت به إلى أن يسارع في المسير فيحث الخطى سعيًا؛ لملاقاة النبي الكريم-ﷺ-مع ما يتصف به من العجز والعمى.

وفي قوله تعالى ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾(عبس:١٠)، دلالة واضحة على أن محادثة النبي-صلى الله عليه وسلم-لهؤلاء المشركين المعاندين ومناصحته لهم وتخصيصهم بالموعظة لا ثمرة من ورائه، ولا فائدة فيه، ولا محصل له، إلا ضياع الوقت من غير ما فائدة، كمن يحفر في صخر أصم، ذلك لأنهم

(١) أبو بكر الجزائري، "أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير". ٥:٥١٨.

كانوا مستغنين عن حديثه كارهين له، معرضين عنه، فكأنه تلهى بالحديث معهم عما هو أولى أن ينشغل به، وهو ابن أم مكتوم -ﷺ-، الذي جاء طالبًا لتزكي والتطهر والقرب من الله -عز وجل- ولا ريب أن رفق النبي -صلى الله عليه وسلم-ورحمته بكفار قريش هو الذي دفعه أن يقبل عليهم، وأن يصرف وقته في دعوتهم؛ حرصًا منه على إسلامهم، فالرسول -صلى الله عليه وسلم-بعث رحمة للعالمين، فيعز عليه أن يرى هؤلاء الكفار سائرين في طريق الهلكة ويتركهم عليه، بدون تحذير أو نذير، فهو نبي الرأفة والرحمة للناس أجمعين.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

١-في الآيات عتاب من الله-ﷻ-للنبي الكريم-ﷺ-في توليه وإعراضه عن ابن أم مكتوم، وفي هذا العتاب حث على الترحيب بالفقراء، والمسارعة في تلبية احتياجاتهم، وقد تأدب الناس بعد ذلك العتاب الرباني معهم أدبًا رائعًا، حتى أنه روي عن سفيان الثوري أن الفقراء كانوا في مجلسه أمراء [(١)].

٢-في الآيات السابقة بيان أن على (الداعي) ألا يفرق بين فقير وغني، فيدعو الفقراء صابراً على ضعفهم وفقرهم، ويدعو الأغنياء بدون أن يتكلف لهم، وليس عليه مسئولية ما وراء ذلك ما دام قد أدى وبلغ وسوي بين الجميع في البلاغ.

٣-رسمت لنا هذه الآيات بعد ذلك العتاب، الطريق الصحيح الذي ينبغي أن يسلكه فضلاء الأمة من العلماء والدعاة والمصلحين في التعامل مع الأخرين، بغض النظر عن وضعهم الاجتماعي، حيث غرس في نفوس هؤلاء الدعاة والمصلحين وغيرهم مبدأ المساواة بين الغني والفقير، والرفيع والوضيع، والسوي والمعاق، على اعتبار أن كل واحد منهم إنسان له قيمة عظيمة ودور كبير يؤديه في المجتمع، فلا بد أن يجد من التقدير والاحترام ما يجده الآخر.

٤-في الآيات الكريمة دلالة واضحة على شدة حرص النبي -صلى الله عليه وسلم-على هداية الناس وتفانيه العجيب في تحذيرهم من عذاب الله وسخطه.

---

(١) محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل". (ط٣، بيروت، دار الكتاب العربي،١٤٠٧هـ) ٤:٧٠١.

٥-في آيات العتاب إثبات صدق نبوة الرسول -صلى الله عليه وسلم-وعدم معرفته بالغيب، وأن القرآن الكريم كلام الله -عز وجل-ولو أن رسول الله -ﷺ-كان كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم هذه الآيات عن نفسه [١].

٦-تشير الآيات الكريمة للقاعدة المشهورة التي تقول: "أنه لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة"، وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم، والإدبار عن المستغني عنه[٢].

(١) القاسمي، "محاسن التأويل". ٩:٤٠٦.

(٢) عبد الرحمن بن ناصر السعدي، "تيسير الكريم المنان في تفسير كلام المنان". (ط٣، الرياض، مكتبة الرشد،١٤٢٢هـ) ٩١١.

المبحث الثاني

آيات القرآن الكريم بين جلال القدر وحكمة التنزيل

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦ ﴾ (عبس: ١١ – ١٦).

هذا المقطع متصل مع المقطع الأول، فبينما كان الكلام في المقطع الأول عن عتاب الله –عز وجل–لنبيه الكريم –صلى الله عليه وسلم–حين تلهى عن ابن أم مكتوم -رضي الله عنه-وصد عنه، كان الكلام في المقطع الثاني عن تأكيد ذلك العتاب، حيث جاءت آياته مفتتحة بحرف الزجر والردع (كلا)، أي "لا تفعل بعدها مثلها: من إقبالك على الغني وإعراضك عن المؤمن الفقير"[١].

وافتتح المقطع الذي بين أيدينا بهذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴾ وفصل حرف الزجر ﴿ كَلَّآ ﴾، عن قوله ﴿ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴾(عبس:١١)، لأنه وما تقدمه من العتاب يثير في نفس الرسول-ﷺ-الحيرة والسؤال: كيف يكون العمل في دعوة صناديد قريش إذا لم يتفرغ لهم؛ لئلا ينفروا عن التدبر للقرآن[٢]، فيجيء الجواب بعد هذا التساؤل بشكل مباشر وسريع بقوله ﴿ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴾(عبس:١١)، وقد اختلفت أقوال أهل التفسير في عود الضمير في قوله: ﴿ إِنَّهَا ﴾ وفي قوله: ﴿ ذَكَرَهُۥ ﴾ على عدة أقوال، وأكثرهم على أن قوله: ﴿ إِنَّهَا ﴾، أي: آيات القرآن، أو السورة، أو الوصية بالمساواة بين الناس في إبلاغ العلم من غنيهم وفقيرهم وشريفهم ووضيعهم، أو هذه المعاتبة، وقوله: ﴿ ذَكَرَهُۥ ﴾، أي: القرآن والعمل به، أو عائداً إلى الله تبارك وتعالى[٣].

وفي قوله ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴾(عبس:١١)، إيضاح لوظيفة القرآن الكريم التي تتمثل في كونه كتاب

(١) القرطبي، "الجامع لأحكام القرآن". ١٩:١١٥.

(٢) ابن عاشور، "التحرير والتنوير". ٣٠:١١٥.

(٣) ابن كثير، "تفسير القرآن العظيم". ٤:٥٠٢؛ ابن عاشور، "التحرير والتنوير". ٣٠:١١٥.

تذكرة، حيث ورد ذلك في كثير من الآيات الكريمة التي منها، قوله تَعَالَىٰ:﴿ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴾(طه:٣)، وقوله﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴾ (المزمل:١٩)، أي هذه الموعظة تذكرة من الله يذكر بها عباده، ويبين لهم في كتابه الكريم ما يحتاجون إليه، ويبين الرشد من الغي[١].

ولهذا فإن القرآن الكريم اشتمل على أمور كثيرة ووظائف متعددة منها: أنه كتاب تذكرة للعباد، ومنها: أنه دستور الهداية إلى الدين، ومنها: أنه كتاب هداية للتي هي أقوم، عقيدة وخلقًا وعملاً، ومنها: أنه كتاب ترغيب بثواب الله، وترهيب من عقابه، ومنها: أنه كتاب يذكر بمعارف عقلية، وينبه على معارف كونية [٢].

لذلك فإني أوجه رسالة نابعة من قلب صادق لجميع المسلمين في أنحاء العالم وفي كل مكان، بأن يكونوا للقرآن دومًا بألسنتهم تالين، وبأحكامه عاملين، ولألفاظه ومعانيه ذاكرين، ولأمور دينهم وآخرتهم وواجباتهم نحو ربهم ممتثلين.

وفي قوله: ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾(عبس:١١)، تعريض بأن موعظة القرآن نافعة لكل أحد تجرد عن العناد والمكابرة، فمن شاء أن يتعظ ويعتبر وينتفع بهذا التذكير فاز وربح، ومن لم يشأ أن يتعظ به خسر وضاع، وهذا كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴾ (النازعات: ٤٥)، فالجملة الكريمة لتهديد الذين يعرضون عن الموعظة، وليست للتخيير كما يتبادر من فعل المشيئة [٣]، فهي تهديد لذلك الكافر المعاند الذي تعرض له النبي الكريم-ﷺ-محاولاً دعوته للإسلام، مع استغناء ذلك الكافر عنه، فجاءت هذه الآيات الكريمة متضمنة ردعًا وزجراً لهذا الفعل، وموضحة قدر القرآن وعظمته وجلالة آياته بأوصاف عظيمة، وكأنها تعطي إشارة واضحة إلى أن الخاسر في هذا الموقف هو ذلك الكافر

(١) السعدي، "تيسير الكريم المنان في تفسير كلام المنان". ١:٩١١.

(٢) عبد الرحمن حسن حنبكة، "معارج التفكر ودقائق التدبر" (دمشق، دار القلم)، ٢:٢٢٧.

(٣) ابن عاشور، "التحرير والتنوير". ٣٠:١١٦؛ طنطاوي، "التفسير الوسيط للقرآن الكريم"، ١٥:٢٨٥.

الجاحد لا غير.

ثم أثنى الله –عز وجل–على هذه التذكرة، وذكر محلها وعظمها وجلالة قدرها، فقال: ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ (عبس:١٣-١٦)، حيث جاءت هذه الآيات في سياق الحديث عن القرآن الكريم، ووظائفه المتعددة، مبينة أن منزلة القرآن أعظم منزلة، ومخبرة بأنه موجود في صحف وصفها بثلاثة أوصاف: أنها مكرمة، أي أنها معظمة موقرة عند الله –عز وجل–؛لما فيها من العلم والحكمة، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ[١]، وأنها مرفوعة: أي أنها في السماء السابعة، أو أنها عالية القدر والشرف، أو مرفوعة عن الشبه والتناقض[٢]، وليس بين هذه الأقوال تعارض ولا اختلاف، ولا مانع من الجمع بينها، والصفة الثالثة: أنها مطهرة، أي منزهة عن أيدي الشياطين فلا تصل إليها، وأخذ ذلك من مقابلته بالملائكة في قوله –ﷻ–بعدها ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ (عبس: ١٥ – ١٦)، وقيل: مطهرة عن كل دنس، أو عن كل شرك وكفر[٣]، وكل هذه الأقوال لا تتعارض مع بعضها بل يكمل بعضها بعضاً؛ فإن هذه الصحف ذات قداسة عالية، وبركة واسعة، ومنزهة عن كل ما يمكن التنزه عنه.

وهذه الصحف كائنة ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ (عبس :١٥)، وهم الملائكة الذين جعلهم الله–ﷻ–سفراء بينه وبين رسله، وقال بعضهم: هم الكتبة، وقيل: هم القراء، قال ابن جرير: "والصحيح: أن السفرة الملائكة، وإذا وجه التأويل إلى ما قلنا، احتمل كل الأوجه السابقة، لأن الملائكة هي التي تقرأ الكتب، وتسفر بين الله وبين رسله"[٤].

---

(١) ابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٤:٥٠٢؛ الشوكاني، "فتح القدير". ٥:٤٦٣.

(٢) القرطبي، "الجامع لأحكام القرآن". ١٩:١١٦.

(٣) ابن كثير، "تفسير القرآن العظيم". ٤:٥٠١.

(٤) انظر: محمد بن جرير الطبري، "جامع البيان في تأويل القرآن". (ط٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٠ هـ)، ٢٤:١٠٩.

ثم أثنى الله –عز وجل–على هؤلاء السفرة فقال: ﴿كِرَامِ بَرَرَةٍ﴾ (عبس : ١٦)، كرام على الله بررة، أي: أن هذه الآيات بأيدي سفرة وهم الملائكة التي من صفاتهم أنهم مكرمون ومعظمون عنده –ﷻ–وأنهم أصحاب تقوى وطاعة لله –عز وجل– قال عطاء –عند تفسيره لهذه الآية– : "يريد أنهم يتكرمون أن يكونوا مع ابن أدم إذا خلا مع زوجته للجماع، وعند قضاء الحاجة"، وقيل: يؤثرون منافع غيرهم على منافع أنفسهم[١]، فهم كرام في أخلاقهم، لهذا وصفهم الله – تبارك وتعالى–في كتابه الكريم بأنهم كرام كاتبون، يعلمون ما تفعلون، وأنهم لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يستحسرون، وأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وهم كرام في خلقتهم ؛لأنهم على أحسن خلقة، فخلقهم كريم حسن شريف. و ﴿بَرَرَةٍ﴾ (عبس:١٦)، جمع بر، وهو من كان كثير الفضل والطاعة والإحسان والخشوع لله –تبارك وتعالى–، وجاء وصفهم بالبررة في السنة النبوية المطهرة، حيث ورد ذلك في حديث عائشة –رضي الله عنها– أنها قالت: قال رسول الله –ﷺ–"الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به، مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران"[٢].

لهذا ينبغي لحامل القرآن أن يكون صاحب خلق كريم في أقواله وأفعاله، وأن يقتدي بالملائكة الكرام في طاعته لربه –سبحانه وتعالى–ويكون على درجة كبيرة من العلو والرفعة، وعلى كل صاحب رسالة هادفة، ومطلب شريف، أن يقتدي في تحقيق أهدافه، وبلوغ مطالبه، بالملائكة الكرام، كما كان يفعل صاحب الخلق العظيم النبي الكريم –صلى الله عليه وسلم–وصحابته الكرام، وينبغي أن يكون العلماء وطلاب العلم والدعاة إلى الله في هذا العصر –الذي كثرة فيه الفتن، واشتدت فيه المحن،

(١) انظر: الرازي، "مفاتيح الغيب". ٣١:٥٦؛ وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٩:٢١٦؛ وانظر: طنطاوي، "التفسير الوسيط للقرآن الكريم". ١٥:٢٨٥.

(٢) محمد بن إسماعيل، البخاري، "صحيح البخاري"، تحقيق: د مصطفى ديب البغا، (ط٣، بيروت، دار ابن كثير ١٤٠٧ ه)، كتاب تفسير القرآن، باب يوم ينفخ في الصور، ح (٤٩٣٧)، ٣:٩٥؛ مسلم بن الحجاج بن مسلم، "صحيح مسلم". تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت، دار التراث العربي)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر في القرآن، والذي يتتعتع فيه، ح ٧٩٨، ١:٥٤٩

وأصبح فيه الحليم حيرانًا-، أن يكونوا سفراء خير ودعاة رحمة، كما هو حال الملائكة الكرام.

وتتناسق وتتكامل آيات هذا المقطع، وتلتقي على تحقيق هدفه، من بيان مكانة القرآن الكريم وعظم منزلته، وأنه موجود في صحف وصفها بثلاثة صفات، وأن هذه الصحف كائنة بأيدي ملائكة كرام بررة، يتوجب على الدعاة وحملة القرآن الكريم، الاقتداء بهم في أخلاقهم قولاً وعملاً، وتصحيح الكثير من الأفكار والمفاهيم المغلوطة عن هؤلاء الملائكة الكرام عند عامة الناس وخاصتهم.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

١-أسهمت هذه الآيات الكريمة في الكشف عن عظمة القرآن الكريم، وجلالة قدره، وتكفل الله -عز وجل- بحفظه، لأنه في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة.

٢-وضحت هذه الآيات أن القرآن الكريم بلغ في درجة العظمة والرقي إلى حد لا حاجة له أن يقبله الكفرة المعاندون، فسواء قبلوه أو لم يقبلوه فلا تلق لهم بالاً أيها الرسول الكريم، وابذل قصار جهدك في طمأنة وتطيب قلوب الفقراء المقبلين عليك، والذين هم أهل الإخلاص والصدق [١].

٣-أظهرت هذه الآيات أن الملائكة الكرام أعظم الخلق خُلقا، حيث ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (عبس:١٥-١٦)، "أي أنهم ينطوون على معالي الأخلاق، أتقياء في أعلى مراتب التقوى، والكرم وأعزها وأوسعها"[٢].

٤-تشير الآيات الكريمة إلى أنه يجب على كل حامل رسالة هادفة، ومقصد شريف، في عصرنا هذا، وفي كل عصر، من العلماء الربانيين، والقادة السياسيين، والدعاة المخلصين، أن يتأسوا بالملائكة الكرام في طاعتهم الله -عز وجل- وقربهم منه.

---

(١) نظام الدين الحسن النيسابوري، "غرائب القرآن ورغائب الفرقان". تحقيق: زكريا عميران، (ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ) ٦:٤٤٧.

(٢) البقاعي، "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". ٢١:٢٥٨.

المبحث الثالث

الطبيعة الإنسانية والدعوة إلى التأمل والاعتبار

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ (عبس: ١٧ – ٣٢). هذا المقطع متصل مع المقطع الثاني، فبينما كان الكلام في المقطع الثاني عن وصف الله –عز وجل– للكتبة من الملائكة بالأوصاف العالية، وبين –سبحانه وتعالى– شرف وعلو المكتوب وجلالة مقداره، وعظمة آثاره، عقبه بهذه الآيات التي تنعي كل من لم يقبل بكليته على هذا الكتاب العظيم، وداعية عليه بأعظم شدائد الدنيا وهي القتل، ومتعجبة من كفره وتجاوزه كل حد في الطغيان، وكاشفة عن حقارة أصله، ومعددة نعم الله –عز وجل– عليه، وموضحة له قدرة المولى –سبحانه وتعالى– على خلقه وإماتته وبعثه(١).

ولذا تبدأ آيات هذا المقطع بالحديث عن شدة كفر الإنسان وطغيانه، متعجبة من تجاوزه كل حد في جحوده لنعم الله –ﷻ– وجرأته على خالقه –سبحانه وتعالى– وإنكاره لأفضاله الجليلة التي لا تعد ولا تحصى، مما استوجب معه الدعاء عليه بالقتل واللعن والعذاب والهلاك، وهذا دعاء عليه بأشنع الدعوات وأقبحها، لأنه قد بلغ الغاية الكبرى في الكفر والطغيان، مما جعل القرآن يتعجب من حاله التي بلغها، وهذا الأسلوب في الدعاء تستخدمه العرب في تشنيع وتقبيح ما كان عليه صاحبه فيقولون مثلاً: قتل فلان؛ ما أقبح خلقه، وقتل فلان؛ ما أسوأ فعله وما أشبه ذلك(٢)، وقد بلغت هذه الآية من

(١) البقاعي، "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". ٢١:٢٥٩؛ أبو بكر الجزائري، "أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير". ٥:٥٢.

(٢) ابن كثير، "تفسير القرآن العظيم". ٤:٥٠٢؛ محمد بن صالح، العثيمين، "تفسير القرآن الكريم". (ط٣، الرياض، دار الثريا، ١٤٢٤هـ) ٦٤.

الإيجاز نهايته، ومن الجزالة أرفعها، فهي من جوامع الكلم القرآني، الذي لم يسمع مثلها من قبلها[١].

والمراد بالإنسان هنا الكافر خاصة، وليس كل إنسان؛ لقوله فيما بعد﴿ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴾، أي ما الذي حمله على الكفر، وقيل: هو من باب التعجب يعني ما أعظم كفره [٢]، حيث تعجب -ﷻ-من شدة إفراطه في الكفر، وهذا يدل على سخط عظيم وذم بليغ، يدل على قبح حاله، وأنه بلغ من الكبر والعتو حداً لا يستحق معه الحياة.

والكفر في قوله ﴿ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴾، عام يشمل جميع أنواعه، ومنه: إنكار البعث والنشور، حيث كان كثير من الكفار منكرين له، فجاء الاستفهام في الآية التي بعدها يسأل الرب -سبحانه وتعالى-من خلاله عن الشيء الذي أوجد منه هذا الإنسان المتكبر، ويستفسر عن المادة التي خلق منها، فقال -ﷻ: ﴿ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (عبس: ١٨)، حيث تضمنت هذه الآية استدلالاً على إبطال إنكارهم للبعث، ذلك الإنكار الذي هو من أكبر أصول كفرهم[٣]. والغرض من الاستفهام عن مادة خلق الإنسان ومنشئها في الآية السابقة: "هو زيادة التقرير في التحقير"[٤]، أي أن من يشاهد حال هذا الإنسان المتجبر، المنكر لنعم الله -عز وجل-الجاحد لها، يظن أنه مخلوق من مادة جليلة القدر، عظيمة الصنع، يستحق معها أن يتجبر ويتكبر ويفخر بنفسه، ويسوغ لنفسه الطغيان والجرأة على الله وعلى أوامره، فيأتي الجواب من الرحمن -سبحانه وتعالى-كالصاعقة من السماء؛ ليكشف لنا أن كل هذه التصرفات السيئة، والأفعال المشينة، نابعة عن مخلوق من شيء حقير مهين، ﴿ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ (عبس: ١٩)، "أي من ماء قليل دافق يخرج من بين صلب الرجل وترائبه، يلقيه في رحم المرأة فتحمل"[٥]،

(١) انظر: ابن عاشور، "التحرير والتنوير". ٣٠:١٢١.

(٢) ابن عثيمين، "تفسير القرآن الكريم": ٦٤.

(٣) انظر: ابن عاشور، "التحرير والتنوير" ٣٠:١١٢.

(٤) الرازي، مفاتيح الغيب، ٣١: ٥٧.

(٥) ابن عثيمين، "تفسير القرآن الكريم": ٦٤.

فمن كان أصله من هذا الشيء المهين الحقير، فالتكبر والتجبر والطغيان لا يكون لائقًا به أبداً[١]، خاصة وهو يشاهد بأم عينه نعم خالقه، وأفضال موجده التي لا تعد ولا تحصى، في كل زمان ومكان. وقدر -سبحانه وتعالى- هذه النطفة حيث جعلها أحوالاً وأطوارا: نطفة تارة، ثم علقة تارة أخرى، ثم مضغة، إلى أن أتت عليه أطواره وهو في رحم أمه [٢]، وهذه هي المرتبة الأولى من مراتب خلق الإنسان، والتي تتمثل في قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾(عبس: ١٨ – ١٩).

وأما المرتبة الثانية من مراتب خلق الإنسان: فهي المرتبة المتوسطة، والتي تتمثل بقوله تعالى:﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾ (عبس: ٢٠)، حيث تتحدث هذه الآية الكريمة عن صورة أخرى من صور امتنان الخالق -سبحانه وتعالى- على هذا الإنسان الكافر المتجبر المعاند لشرع الله -عز وجل-، وهذه المنة هي تيسيره السبيل، واختلف أهل التفسير في المقصود بالسبيل الذي يسره لها، فقال بعضهم: هو خروجه من بطن أمه، وهو اختيار ابن جرير، وقال آخرون: بل المراد بذلك أن الله بين له وأعلمه سبيل الخير والشر، والحق والباطل[٣]، ورجح هذا القول جمع من المفسرين منهم: ابن كثير والشوكاني والشنقيطي وغيرهم[٤]، وذكر الشنقيطي سبب ترجيحه لهذا القول فقال: "لأن تيسير الولادة أمر عام في كل حيوان، فلا مزية للإنسان فيه على غيره، كما أن ما قبله دال عليه أو على مدلوله، وهو القدرة في قوله ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾(عبس: ١٩)، وقد يكون تيسير الولادة داخلاً تحت قوله:﴿ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ أما تيسير سبيل الدين فهو الخاص بالإنسان، وهو المطلوب التوجه إليه، وهو الذي يتعلق بغيره ما بين

(١) الرازي، "مفاتيح الغيب"، ٣١:٥٧.

(٢) الطبري، "جامع البيان في تأويل القرآن". ٢٤:١١٠.

(٣) الطبري، "جامع البيان في تأويل القرآن". ٢٤:١١١؛ أبو حيان، "البحر المحيط في التفسير". ١٠:٤٠٩.

(٤) ابن كثير، "تفسير القرآن العظيم". ٤:٥٠٣؛ الشوكاني، "فتح القدير". ٥:٤٦٥؛ الطبري، "جامع البيان في تأويل القرآن". ٢٤:١١٣.

تخلقه من نطفة وتقديره، وبين إماتته وإقباره[١].

ومن وجهة نظري: أن الاختلاف في تفسير هذه الآية من باب اختلاف التنوع، وليس من باب اختلاف التضاد، وأن كلا القولين معتبر، وذلك أن الله –عز وجل–يسر له الطريق؛ ليخرج من بطن أمه، ويسر له بعد ذلك معرفة طريق الخير والشر، ثم يسر له بعد ذلك الرزق، ثم يسر له ما هو أهم وهو طريق الهدى والفلاح، وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

وأما المرتبة الثالثة من مراتب خلق الإنسان: فهي المرتبة الأخيرة، والتي تتمثل في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ (عبس: ٢١ – ٢٢)، حيث يستكمل القرآن الكريم من خلال آيات هذا المشهد الحديث عن منة أخرى من منن المولى –عز وجل–على ذلك الإنسان الكافر المعاند، وعن نعمة أخرى من نعمه التي لا تعد، وهي نعمة الإماتة والإقبار والإنشار، وهذه المراتب الثلاثة تندرج تحت المرتبة الأخيرة من مراتب خلق الإنسان، فالإماتة جعلها الله –عز وجل–من النعم " لأنها وصلة في الجملة إلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم"[٢]، "ولأنه لو دام الإنسان حيًا مع ما يصل إليه من الضعف والخوف لكان في غاية البشاعة والشماتة لأعدائه والمساءة لأوليائه"[٣]، وأما الإقبار فهو كذلك من النعم التي امتن الله –عز وجل–بها على ذلك الإنسان الكافر، حيث جعل له قبراً يوارى فيه، تكرمة له، ولم يجعله مطروحًا على الأرض، يستقذره من يراه، وتقتسمه السباع، وتمزقه مخالب الطير والكلاب وسائر الحيوان[٤]، وأشار بالفاء المعقبة في قوله ﴿ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴾ للدلالة على سرعة تجهيز الميت، وحصول ذلك بعد الموت مباشرة دون مهلة أو انتظار[٥]، وتتنافي هذه الدلالة مع ما يفعله بعض

(١) الشنقيطي، محمد الأمين بن المختار، "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن". (بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ) ٤٣٥: ٨.

(٢) أبو السعود، "إرشاد العقل السليم". ٩: ١١٠؛ الألوسي، "روح المعاني". ١٥: ٢٤٧.

(٣) البقاعي، "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". ٢١: ٢٦١.

(٤) أبو السعود، "إرشاد العقل السليم". ٩: ١١٠؛ الألوسي، "روح المعاني". ١٥: ٢٤٧

(٥) البقاعي، "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". ٢١: ٢٦١.

الناس اليوم من تأخير تجهيز الجنازة دون عذر شـرعي، كمن يأخرها؛ لينتظر حضـور قريب غائب أو صـديق أعاقه المرض؛ ليتمكن من حضـور مراسـم الدفن والعزاء، وهذا كله مخالف لما نص عليه الكتاب ولما جاء في السنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

والإنشـار نعمة ثالثة من نعم الله –عز وجل–ومنة من منه–ﷻ–على هذا الإنسـان، "وهو إخراجه من الأرض حيـًا وهو البعث"[1]، وعبر القرآن الكريم بأداة التراخي (ثم) في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ (عبس: ٢٢)؛ ليكشف لنا عن مدة البرزخ التي يقضيها الإنسان في قبره، يقول البقاعي: "ولما كانت مدة البرزخ طويلة، وكان البعث أمراً محققـًا غير معلوم الوقت بغيره تعالى، عبر عن المعنى في هذه الآية بأداة التراخي والتحقق، فقال: ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ ﴾ أي إنشاره ﴿ أَنشَرَهُۥ ﴾[2].

وقد يفهم من إخباره –سبحانه وتعالى–بأنه أنعم على الإنسان بهذه النعم السالفة، وتلك الأفضال العظيمة، منذ نشـأته الأولى حتى بعثه، أن الإنسـان لا يعمل إلا بما يرضـي الله –سـبحانه وتعالى–ولذا جاء النفي لذلك الفهم على سبيل الردع والزجر [3]، فقال –عز وجل–﴿ كَلَّا ﴾، أي "ليس الأمر كما يظن من أن هذا الإنسـان الجاحد الكافر قد أدى حق الله عليه، في نفسـه وماله. ويحتمل: أن ذلك رد لقوله: إن الله –سـبحانه وتعالى–لن ينشـره، وذلك لأنه ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ أي لم يؤد ما فرض عليه من الفرائض لربه –سبحانه وتعالى–أو المعنى: أن الله –عز وجل–لن ينشـره الآن؛ حتى تنقضـي المدة ويفرغ القدر، لأن له موعداً منتظراً، وفي هذا رد على منكري البعث الذين يعتلون بأنه لو كان البعث حقـًا، لوجدنا أباءنا الآن، وهذا القول فيه افتراء وكذب، وذلك لأن الرسل–عليهم السلام–لم يقل أحد

(١) انظر: ابن عاشور، "التحرير والتنوير". ٣٠:١٢٢.

(٢) البقاعي، "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". ٢٦٢: ٢١.

(٣) المرجع السابق: ٢٦٢: ٢١

منهم: إنكم تبعثون الآن، بل قالوا إنكم تبعثون جميعًا بعد أن تموتوا جميعًا[١].

"ولما ردع المولى -عز وجل- هذا الإنسان بعد تفصيل ماله في نفسه من الآيات، وأشار إلى ماله من النقائص، شرع يقيم الدليل على تقصيره، بأنه لا يقدر على شكر نعمة المنعم فيما له من المطعم الذي به قوامه، فكيف بغيرها؟، فقال -ﷻ- ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ (عبس: ٢٤)[٢]، حيث أمر الله -عز وجل- الإنسان في هذه الآية الكريمة بالنظر في خلق طعامه، ولا يقتصر هذا النظر على مجرد النظر بالعين، بل النظر الذي يصحبه التفكر والتدبر والتأمل والاعتبار واستنباط الروابط والغايات، كما نص عليه بعض المفسرين[٣]، ولهذا اختار الله -عز وجل- كلمة الطعام في الآية دون غيرها؛ ليطلب من هذا الإنسان المعاند المكابر التدبر والتفكر فيه، "لأنه قوام حياته، وألصق شيء به، وأقرب شيء إليه، وألزم شيء له، حيث هيأ الله له ولمواشيه هذا الطعام؛ ليستعين به للبقاء على قيد الحياة، والحفاظ عليها، مما يعينه على طاعة الله -عز وجل- والاستعداد به ليوم المعاد"[٤].

ولهذا كان الأمر بالنظر المصاحب للتدبر والتفكر في الآية الكريمة، يتناسب مع الجو العام للسورة، وينسجم مع الحال الذي كان عليه المخاطبين في تلك الفترة، حيث كان كفار مكة في أعلى درجات التكذيب بالبعث والنشور، وفي غاية الإنكار للجزاء والحساب.

وبعد أن أمر الله -ﷻ- هذا الإنسان بالنظر إلى طعامه في المشهد الأول، أمره في هذا المشهد بأن ينظر إلى المراحل التي مر بها هذا الطعام وأنواعه، ليتفكر؛ لعله أن يرجع عن غيه وكفره، فقال -عز وجل-: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا

(١) بتصرف: انظر: الطبري، "جامع البيان في تأويل القرآن". ٢٤: ١٤٤؛ وانظر: ابن كثير، "تفسير القرآن العظيم". ٤: ٥٠٤؛ ابن عثيمين، "تفسير القرآن الكريم". ٦٦.

(٢) البقاعي، "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". ٢١: ٢٦٤.

(٣) النيسابوري، "غرائب القرآن ورغائب الفرقان". ٦: ٤٤٩؛ أبو حيان، "البحر المحيط في التفسير". ١٠: ٤١٠؛ الألوسي، "روح المعاني". ١٥: ٢٤٧.

(٤) انظر: ابن عاشور، "التحرير والتنوير". ٣٠: ١٣٠؛ حبنكة، "معارج التفكر ودقائق التدبر". ٢: ٢٢٧.

وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ (عبس: ٢٥ – ٣٢)، حيث بدأ المولى –عز وجل–بأول مرحلة من مراحل صنع الطعام، فبدأ "بالسماوي؛ لأنه أشرف، وبالماء الذي هو حياة كل شيء؛ تنبيهًا له على ابتداء خلقه"[١]، ثم ذكر بعد ذلك المرحلة الثانية، وهي التي تكون بعد مهلة من إنزال الماء، وهي شق الأرض بالنبات، وذلك أنه "أسكن فيها الماء، فدخل في تخومها وتخلل في أجزاء الحب المودع فيها، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض"[٢]، ثم أتى بالمرحلة الأخيرة من مراحل صنع الطعام، وهي الإنبات حيث عدد المولى –سبحانه وتعالى–فيها أنواع الطعام التي أمر الإنسان بالتفكر فيها، فقال –ﷻ–: ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ (عبس: ٢٧ – ٣١)، "حيث جمعت هذه الآيات في سرد رائع كل ما يمكن أن ينبت على وجه الأرض من مزروعات تفيد الإنسان، والدواب التي سخرها الله تعالى للإنسان، فكلمة (الحب) تشمل: البر والأرز والذرة والشعير، وأما القضب: فهو كل ما يقضب من النبات كالقثاء وسائر البقول، والأب: كل ما تنبته الأرض من عشب، سواء ما يأكله الناس أو ما تأكله الدواب، ودلالة العنب والزيتون والنخيل واضحة، والحدائق بما فيها من أشجار كثيرة، فالآيات السابقة تبين لنا كل ما يحتاجه الإنسان من طعام حياته وحياة دوابه، وكذلك الفاكهة على مختلف أنواعها، إضافة لعنصر الراحة النفسية، والتمتع بجمال الطبيعة"[٣].

ونلاحظ أن هذه الآيات الكريمة قد حفلت بذكر الكثير من أنواع الأطعمة، والأغذية الطيبة النافعة التي تمد جسم الإنسان بالطاقة والصحة والفائدة، وقد استهل المولى –عز وجل–هذه الأنواع الثمانية بذكر الحب تحديداً ؛لأنه كالأصل في الأغذية والقوام[٤]، ثم خص الأنواع الأربعة بالنص: (العنب) و

(١) البقاعي، "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". ٢١:٢٦٤.

(٢) ابن كثير، "تفسير القرآن العظيم". ٤:٥٠٤.

(٣) الصعبي، د. إبراهيم، "القصة في القرآن الكريم (الموسوعة القرآنية)". ١:٤.

(٤) انظر: البقاعي، "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". ٢٦٤: ٢١؛ وانظر: الرازي، "مفاتيح الغيب". ٣١:٥٩.

(القضـب) و (الزيتون) و (النخل)؛ لكثرة فوائدها ومنافعها[١]، ومن المفسـرين من نص على أن ذكر هذه الأنواع المختلفة من الأطعمة من: حب، وقضـب، وعنب، وزيتون، ونخيل، وفواكه متعددة، وحدائق ملتفة؛ لظهور معنى المغايرة فيها، مع أنها من أصـلين مشـتركين: الماء من السـماء، والتربة في الأرض، يسـقى بماء واحد[٢]، ومع هذا كله فإن كلام المفسـرين عن أسـرار ترتيب هذه الأطعمة والتنصيص عليها في هذه الآيات، لا يغلق باب الاجتهاد في محاولة الوصول إلى غير تلك النتائج وتلك الأسرار.

وبنظرة سـريعة إلى ما يتناوله الناس اليوم من أطعمة ووجبات سـريعة، نجد أن الكثير منهم قد انهمك في شراء الطعام والشراب أو امتلاكه، بأي ثمن كان، وبأي وسيلة كانت، تقليداً لغيره من الناس، حتى لو كان هذا الطعام والشـراب محرمًا، أو لا فائدة منه تعود على صـحة الإنسـان وحجم منفعته لجسمه، ولأجل أي مناسبة كانت، كما تجدهم ينفقون آلاف الأموال، ناسين ومتناسين أن المولى – عز وجل–نهى عن الإسـراف والتبذير عمومًا، وفي المطاعم والمشـارب خصـوصـًا، وأنه يبغض من يفعله، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ (الأنعام: ١٤١). وهم كذلك يتغافلون عن مجرد التفكير في الجياع حولهم من إخوانهم المسلمين المنتشرين في بقاع العالم، والذين يموتون بسبب الجوع الذي كان الإسراف والتبذير أحد أسبابه.

وفي المقابل: نجد أن الكثير من هؤلاء الناس قد أحجموا عن تناول تلك الأطعمة المفيدة المغذية التي تمد أجسـامهم بالطاقة والصـحة، وتعينهم على القيام بما أوجب الله عليهم من تكاليف دينية ودنيوية، حيث أحجم هؤلاء عن تناول الأطعمة التي ورد ذكرها في الآيات السـابقة من هذه السـورة الكريمة، مع رخص ثمنها، واشـتمالها على العديد من الفوائد والمنافع الصـحية التي يطول ذكرها في هذا المقام.

(١) السعدي، "تيسير الكريم المنان في تفسير كلام المنان". ١:٩١١.

(٢) الشنقيطي، "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن". ٨:٤٣٥.

وتختم آيات هذا المقطع الذي أمر المولى –عز وجل–فيه الإنسان بالنظر ببصره وبصيرته إلى المراحل التي مر بها صنع طعامه بشتى أنواعه وأشكاله، بقوله تعالى ﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ (عبس: ٣٢)، حيث يقول الطبري في تفسيرها: أي" أنبتنا هذه الأشياء التي يأكلها بنو أدم؛ متاعًا لكم أيها الناس، ومنفعة تتمتعون بها، وتنتفعون، والتي يأكلها الأنعام لأنعامكم، وأصل الأنعام الأبل، ثم يستعمل في كل راعية"[١].

ونلاحظ–من خلال ما تقدم–أن المقصود الأعظم من ذكر هذه الأنواع المختلفة من الأطعمة هو التقريع لكل من جحد نعم الله –عز وجل–وأنكرها، مع ضخامة تلك النعم التي جاءت في المشهد السابق وكثرتها وعدم انقضائها، وأن جميع الخلق يعجز عن شكرها والوفاء بحقها، والتوبيخ لكل من كفر به –سبحانه وتعالى–وشك في قدرته على البعث والنشور.

وتتناسق وتتكامل آيات هذا المقطع، وتلتقي على تحقيق هدفه، من ذم الله للإنسان الكافر الذي أنكر البعث والنشور، والدعاء عليه بأعظم شدائد الدنيا وهي القتل، والتعجب من كفره، والكشف عن حقارة أصله، وبيان نعم الله عليه من ولادته إلى إقباره ونشوره، وبيان أن هذا كله يستوجب منه الشكر لا الكفر، ثم أمره بالنظر إلى طعامه والتأمل والتفكر في مراحل صنعه، ثم بين –سبحانه وتعالى–أن هذا الطعام خلقه بأشكاله المختلفة؛ متاعًا لك أيها الإنسان ولأنعامك، فكيف تقابله بعد ذلك كله – بإنكارك قدرته على البعث والنشور؟

الهدايات المستنبطة من المقطع:

١–في الآيات السابقة علاج ناجع من المولى –عز وجل–لكل إنسان جاحد كافر، منكر للبعث والنشور، حيث ذكره –سبحانه وتعالى–بمصدر وجوده، وأصل نشأته، وتسهيل أموره، وتوفير قوته، ومع ذلك كله يقصر هذا الإنسان في أمره –سبحانه وتعالى –فيكون بذلك مستحقًا للعن وأعظم أنواع العقاب.

٢–أظهرت هذه الآيات عظيم لطف الله –عز وجل–وعنايته بالإنسان، منذ أن كان نطفة في رحم أمه،

(١) انظر: الطبري، "جامع البيان في تأويل القرآن". ٢٤:٢٣١.

إلى أن يخرج منه حاملاً لأمانة الله ورسالته، مهتديًا بهديه، شاكراً له على نعمه الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى.

٣-أوضحت هذه الآيات أن الموت رحمة من الله -عز وجل-بالإنسان، ونعمة من نعمه، لأن الإنسان لو بقي حيًا، مع ما يعتريه من ضعف وخوف، لكان في غاية الشناعة، وعرضة للشماتة من أعدائه.

٤-في الآيات السابقة إشارة إلى مشروعية دفن الإنسان عمومًا، حيث جعل له المولى -سبحانه وتعالى-موضعًا لدفنه تكرمة له، ولم يجعله مما يلقى على وجه الأرض، تأكله الطير والسباع وسائر المفترسات.

٥-في الآيات الكريمة دلالة واضحة على أن كل إنسان مقصرٌ في حق ربه، عاجزُ عن شكره على نعمه، لأنه لا يقضي ما أمر به، من الإيمان والطاعة، والتفكر في قدرته، والتأمل في عجائب صنعه.

٦-في الآيات السابقة أمر الله -سبحانه وتعالى-الإنسان بالنظر ببصره وبصيرته إلى المراحل التي مر بها صنع طعامه، وطعام دوابه، وكيف هيأ له أمره ودبر له شأنه، ولو تفكر هذا الإنسان الجاحد في لقمة واحدة يأكلها من غير عناء يتكلفه، لعرف نعمة الله عليه، ولشكر ولم يكفر، ولقام بالواجب ولم يقصر.

٧-أوضحت هذه الآيات أن المقصود الأعظم من ذكر الأنواع المختلفة من الأطعمة هو التقريع لكل من جحد نعم الله -عز وجل-وأنكرها، والتوبيخ لكل من كفر به -سبحانه وتعالى-وشك في قدرته على البعث والنشور.

المبحث الرابع

الإنسان في القيامة بين دلائل الوجوه وهول الفرار

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾(عبس: ٣٣ – ٤٢)، هذا المقطع متصل مع المقطع الثالث، فبينما كان الكلام في المقطع الثالث عن ذم الله للإنسان الكافر الذي أنكر البعث والنشور، وعن نعم الله تعالى في نفس الإنسان، وفي الأفاق، وكان من مقاصد ذكر هذه الأنواع والأشكال، أن الإله الذي أحسن إلى عبيده بهذه الأنواع العظيمة من الإحسان، لا يليق بالعاقل أن يتمرد عن طاعته وأن يتكبر على عبيده، أتبع هذه الجملة بما يكون مؤكداً لهذه الأغراض، وهو ذكر أهوال القيامة، وذكر أحوال الناس فيها، فإن الإنسان إذا سمعها خاف، فيدعوه ذلك الخوف إلى التأمل في الدلائل والإيمان بها والإعراض عن الجحود والكفر، وترك التكبر على الناس، وإظهار التواضع إلى كل أحد"[1].

فآيات هذا المشهد تمثل "النتيجة الحتمية لمن تم ذكرهم في بداية السورة (الكافر والمؤمن) وهذا هو إعجاز القرآن، ينتقل من مشهد إلى مشهد أخر بنقلة قرآنية فريدة لا يشعر من خلالها القارئ بفراغ أو خلل بين المشاهد القرآنية"[2].

وتبدأ آيات هذا المقطع بذكر أهوال يوم القيامة، وأحوال الناس فيه، والملفت للنظر: أن الآيات لم تتطرق في هذا المشهد للحديث عن أدلة لإثبات هذا اليوم، بل ذكر الأهوال والأحوال التي تقع فيه، لعلها تحدث في نفوس المنكرين والمشككين هزة توقظهم من غفلتهم وتزيل عن قلوبهم شبهات استولت عليها حتى أغلقتها، فقال –سبحانه وتعالى– ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾(عبس: ٣٣)، "فإذا جاءت" أي بعد الموت "الصاخة" وهي: "صيحة القيامة، سميت بذلك لأنها تصخ الأسماع، أي تبالغ

(١) انظر: الرازي، "مفاتيح الغيب". ٣١:٦١.

(٢) وانظر: نخبة من علماء التفسير، "التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم" ٩:٤٥.

في الأسـماع حتى تكاد تصـمها"[١]، وعبر عن يوم القيامة بهذا الفظ الذي يحمل بداخله من الشـدة والرعب ما يجعل المسـلم يسـتعد لذلك اليوم، ويتزود بالزاد الذي يقوي ويعين على أهوال الصـاخة، وفي ذلك اليوم يوم الصاخة "﴿ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾(عبس: ٣٤ – ٣٧)، حيث يصـور لنا هذا المشـهد المخيف موقف المرء من أقرب الناس إليه وأحبهم إلى روحه، ممن كانوا معه في الدنيا، حيث كان يقطن معهم، ويشاركهم في أفراحهم وأتراحهم، ويأنس بهم، ويهتم لما أهمهم، ويزورهم ويتفقد أحوالهم، حتى إذا جاءت الصـاخة، التي تصـخ الآذان تغيرت المفاهيم، وانقلبت الموازين، وأيقن الكل بحقيقة البعث والنشـور، وحينها يعلم الجميع علم اليقين أن الأمور ليسـت بهزل، وأن كل امرئ مرتهن بما عمل، عندها يبرز مشـهد الفرار، كل إنسان يهرب من أقاربه وأحبابه لأن الهول عظيم والخطب جلل، وأنه لن يستطيع أن ينفعهم بشيء، ولا هم بقادرين على نفعه بشيء.

وقد اختلف المفسرون حول المقصود بفرار المرء من هذه القرابات الخمسة المذكورة في الآيات الثلاث على عدة أقوال متقاربة لا تعارض بينها [٢]، وخُص هؤلاء القرابات بالذكر دون غيرهم؛ لأنهم أخص القرابات وأولاهم بالحنو والرأفة، فتجاهلهم والفرار منهم لا يكون إلا في أشـد حالات الخوف والفزع [٣].

وقد وقف كثيرٌ من المفسـرين على الكشـف عن السـر في ترتيب هؤلاء القرابات-كما وردت-في الآيات، لكنهم لم يتفقوا، بل اختلفت آراؤهم في ذلك، وبات كل واحد منهم يفصـح عن سـر ذلك

(١) البغوي، الحسين بن مسعود الفراء، "معالم التنزيل في تفسير القرآن". تحقيق: عبد الرزاق المهدي، (ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ) ٥: ٢١٢.

(٢) فمنهم من قال: إن المقصود به عدم اشتغاله بشيء يتعلق بهم، ومنهم من قال: إن الفرار بسبب خوفه من قرابته أن يطالبوه بالحقوق التي لهم عليهن وقد كان مفرطًا فيها، ومنهم من قال: إن سبب فراره منهم حتى لا يروه في تلك الشدة وفي ذلك المكان. انظر: القرطبي، "الجامع أحكام القرآن". ١٩: ٢٤٢؛ وانظر: طنطاوي، "التفسير الوسيط". ١٥: ٢٩٣.

(٣) الشوكاني، "فتح القدير". ٥: ٤٦٦؛ طنطاوي، "التفسير الوسيط". ١٥: ٢٩٣.

الترتيب باجتهادات منه، وبما يفتح الله عليه:

فهذا الزمخشري: يبين لنا سر هذا الترتيب -من وجهة نظره-فيقول: "وبدأ بالأخ، ثم بالأبوين؛ لأنهما أقرب منه، ثم بالصاحبة والبنين؛ لأنهم أقرب وأحب، كأنه قال: يفر من أخيه، بل من أبويه، بل من صاحبته وبنيه [١]، فجعل الزمخشري ترتيب هؤلاء القرابات في الآيات الكريمة قائما على مدى القرب في المحبة، أي أن أبناء المرء هم أكثر الناس قربًا ومحبة وحنواً، ثم زوجه، ثم أباه، ثم أمه، ثم أخاه. وقد ذهب البقاعي وغيره من العلماء [٢]، في ترتيب هؤلاء القرابات إلى ما ذهب إليه الزمخشري.

بينما فصل ابن عاشور-وبشكل دقيق-في سر ترتيب هؤلاء القرابات الذين ورد ذكرهم في الآيات، فقال في بيان ذلك: "ورتبت أصناف القرابة في الآية حسب الصعود إلى من هو أقوى منه؛ تدرجًا في تهويل ذلك اليوم، فابتدىء بالأخ؛ لشدة اتصاله بأخيه من زمن الصبا، ثم ارتقى من الأخ إلى الأبوين، وهما أشد قربًا لأبنيهما، وقدمت الأم في الذكر؛ لأن إلف ابنها بها أقوى منه بأبيه وللرعي على الفاصلة، وانتقل إلى الزوجة والبنين وهما مجتمع عائلة الإنسان، وأشد الناس قربًا به وملازمة"[٣].

فالمرء ملتصقٌ في حياته اليومية بزوجته وأبنائه أكثر من التصاقه بإخوانه وأبويه، وقد تمضي أيام وشهور وأعوام، ولا يرى الواحد منا إخوانه في حين أننا نأوي كل يوم، وفي كل حين إلى أزواجنا وفلذات أكبادنا، وقد يترك المرء أمه وأباه؛ ليعيش مع زوجه وأبنائه، وقد يفارق صاحبته، ولكن لا يفارق أبنائه، لأنهم أخر من يفر منهم المرء، ويهرب [٤].

ولما ذكر فرار المرء من أقربائه الخمسة، علله فقال: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ

(١) الزمخشري، "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل". ٤:٧٠٥.

(٢) البيضاوي، "أنوار التنزيل وأسرار التأويل". ٥:٢٨٨؛ الرازي، "مفاتيح الغيب". ٣١:٦١. ابن عادل، عمر بن علي الدمشقي، "تفسير اللباب". (بيروت، دار الكتب العلمية)، ١:٥٢١١؛ ابن عاشور، "التحرير والتنوير". ٣٠:١٣٥.

(٣) ابن عاشور، "التحرير والتنوير". ١٣٥: ٣٠.

(٤) السامرائي، فاضل بن صالح، "لمسات بيانية في نصوص من التنزيل". (ط٣، عمان، دار عمان للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ). ١٩٤.

يُغْنِيهِ ﴾(عبس:٣٧)[١]، أي هو في شغل شاغل عن غيره [٢]، بحيث لا يدع له حصة يمكنه صرفها إلى غيره، ويوجب له لزوم المغني، وهو المنزل الذي يرضيه[٣]، ولهذا لما قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: "تحشرون حفاة عراة غرلا" فقالت امرأة: أيبصر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: "يا فلانة، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه"[٤].

وبعد أن ذكر مشهد ذلك اليوم الرهيب، وما يحدث فيه من فزع شديد، وفرار عظيم، حيث يفر المرء من أحب الأحباب، وأعز الأعزاء بسبب هول ما يرى ويسمع، " أردفه في ختام آيات هذا المقطع بمشهد أخر من مشاهد هذا اليوم العظيم، حيث تتقابل فيه الوجوه ويتباين فيه المأل والمصير.

فحينما انقسم الناس إلى فريقين مقصودين بالتذكرة في بداية السورة، كان الجزاء مطابقا لحال الفريقين في ختام السورة: فريق أهل السعادة تم وصفهم بوصف دال على البواطن بأشرف الظواهر": ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾(عبس: ٣٨ – ٤٢) [٥]، أي "وجههم مضيئة مشرقة، متبسمة من كمال سرورهم، مستبشرة بالقدوم على ربها، وما آتاها من الكرامة،"[٦]، وهي وجوه المؤمنين والمؤمنات، حينها يتذكر أصحابها إيمانهم وأعمالهم الصالحة فيزدادوا سروراً، ويسعدوا بما أعده الله لهم من النعيم والكرامة[٧]، و فريق أهل الشقاوة الذين استحبوا الكفر على الإيمان والمعصية على الطاعة، جاء وصفهم بوصف دال على البواطن بأقبح الظواهر ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ

(١) البقاعي، "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". ٢١:٢٧١.

(٢) ابن كثير، "تفسير القرآن العظيم". ٤:٥٠٥.

(٣) البقاعي، "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". ٢١:٢٧١.

(٤) أخرجه الترمذي، "سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ٧٢، ح ٣٣٣٢، ٥:٤٠٣. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) البقاعي، "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". ٢١:٢٧١.

(٦) القرطبي، "الجامع لأحكام القرآن". ١٩:٢٤٢.

(٧) البقاعي، "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". ٢١:٢٧٢.

﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾(عبس: ٤٠ – ٤٢)، أي "ووجوه أخرى في القيامة تغيرت وعلاها السواد والدخان والكسوف والذلة،؛ لما تراه مما أعده الله –سبحانه وتعالى–لها من العذاب"[١]، وهي وجوه أهل الكفر، حيث صرح بذلك في قوله تعالى ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾(عبس: ٤٢)، حينها يتذكر أصحابها كفرهم وفجورهم فيزدادون كمداً وحزنًا، ويشقون بما أعده الله لهم من العذاب الأليم والعقاب الوخيم.

وقدم في الآيات الكريمة ذكر وجوه أهل السعادة على وجوه أهل الشقاوة؛ لمناسبة السياق، وتمشيًا مع الجو العام للسورة، حيث "أقيمت السورة المباركة على عماد التنويه بشأن رجل من أفاضل المؤمنين، ومن خيرة الصحابة -رضي الله عنهم- أجمعين–وهو ابن أم مكتوم، والتحقير لشأن عظيم من كفار قريش، فكان حظ الفريقين مقصوداً مسوقًا إليه الكلام، وكان حظ المؤمنين هو الملتفت إليه أولاً، والمبتدأ به في هذا المشهد"[٢].

ولقد وضحت لنا هذه الخاتمة من خلال النظر في ألفاظ آياتها، والتأمل في عباراتها، المصير الواضح لأصحاب تلك الوجوه المتباينة، ففريق أهل السعادة هم أهل الجنة، أصحاب الوجوه المضيئة المشرقة، وفريق أهل الشقاوة هم أهل النار، أصحاب الوجوه التي علاها السواد والدخان من الكرب والغم، وفي ذلك تمييزٌ واضحٌ بين الفريقين.

وهذه الآيات الخاتمة، هي خاتمة موضوعية مناسبة للسورة، حيث وقعت في ختام السورة التي قرر مطلعها حقيقة الميزان، وهي أن التفاضل بالتقى، وقد جاء الختام ليقرر نتيجة الميزان، وبذلك يتناسق المطلع والختام، ويعود آخرها على أولها فيمن يستحق الإعراض عنه ومن يستحق الإقبال عليه [٣].

وبهذا تبدوا لنا هذه السورة وحدة موضوعية، متكاملة الأطراف، متناسقة الأوضاع، مؤتلفة

(١) انظر: الزحيلي، "التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج". ٣٠:٧٦.

(٢) ابن عاشور، "التحرير والتنوير" ٣٠:١٣٧.

(٣) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج٢١، ص٢٧٣.

العناصر، ما بين مقدمتها ومقاطعها الأربعة وخاتمتها، وما بين خطوطها الأساسية وحقائقها الدعوية، وبهذا صح اعتبارها سورة التربية الدعوية والتصحيح للقيم الإنسانية.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

١-تصور الآيات الكريمة شدة هول مشهد مجيء يوم القيامة، وتحذر منه، حيث يفر المرء وينسلخ من ألصق الناس به وأحبهم إليه، من هول ما يرى ويسمع.

٢-أشارت الآيات الكريمة إلى وجوب استعداد المرء استعداداً تامًا ليوم المعاد، والعمل بجميع الوسائل التي تعينه على ذلك، ومنها: التزود بالطاعات والعبادات والأخلاق الفاضلة، ودوام التفكر في مخلوقات الله - تبارك وتعالى-، وتجديد التوبة معه -عز وجل-.

٣-أوضحت الآيات الكريمة النتيجة الحتمية-نتيجة الميزان-لمن تم الحديث عنهم في بدايات السورة (الكافر والمؤمن)؛ حيث قرر مطلع السورة حقيقة الميزان، وهي التفاضل بالتقى، وجاءت خاتمتها لتقرر النتيجة.

٤-دلت الآيات الكريمة على أن أهل القيامة فريقان: أهل السعادة وهم أهل الثواب، وأهل الشقاوة وهم أهل العقاب، فأهل السعادة وجوههم مشرقة مضيئة؛ بما منحهم الله من الكرامة، وأهل الشقاوة وجوههم يعلوها السواد والدخان والغبار؛ بسبب ما جاءوا به من الكفر والفجور، وفي ذلك تمييز بين الفريقين.

والله أعلم

الخاتمـــة

الحمد لله الذي بفضـــله تتم الصـــالحات، والصـــلاة والســـلام على نبينا محمد ﷺ، وعلى آله، وصحبه، والتابعين بإحسان إلى يوم الدين. وبعد

فقد عشـت مع هذا البحث مدة أعالج قضـاياه، وأرتب مسـائله، وأهذب شـوارده، وقد توصـلت بحمد الله إلى عدد من النتائج، منها:

١-لم أجد حديثًا صـحيحًا صـريحًا ورد في فضـل سـورة عبس، إنما الذي ورد في فضـلها إما أحاديث صـريحة، ولكنها في نفس الوقت غير صـحيحة، وإما أحاديث صـحيحة لكنها غير صـريحة، حيث إنها عامة تشمل السورة وغيرها.

٢-أن النبي -ﷺ-لم يكتم شـيئًا من القرآن الكريم؛ لأنه لوكان كاتمًا شـيئًا من القرآن لكتم الآيات المشتملة على العتاب له، والتي تنبيهه على بعض ما كان الأولى به ألا يفعله.

٣-أن ورود لفظة "عبس" وما يشـتق منها في ثلاث سـور مكية دعوية يشـير إلى عمق الخط الدعوي في شـخصـية وسـيرة النبي -صـلى الله عليه وسـلم-. وعنوان سـيرة الرسـول -صـلى الله عليه وسـلم-هو: "سيرة نبي إمام داعية".

٤-أن الخطاب القرآني الذي حمل في طياته العتاب الموجه للنبي -ﷺ-في سـورة (عبس) جاء بضـمير الغائب، والتعبير بضـمير الغيبة من الأسـاليب الفريدة التي ابتدأت به هذه السـورة، لحكم جليلة، منها: عدم مواجهة النبي-ﷺ-بالعتاب؛ رفقًا وتلطفًا ورأفة به، وذلك لما في المشـافهة ما لا يخفى، وكي لا يفاجئه بالعتاب، ويقع في نفسـه مدرجًا، وذلك أهون، ومنها: تكريم له -صـلى الله عليه وسـلم-من الله تعالى، وحماية لذاته الشريفة من أن يواجه بالعتب واللوم.

٥-أن على (الداعي) ألا يفرق بين فقير وغني، فيدعو الفقراء صـــابراً على ضـــعفهم وفقرهم، ويدعو الأغنياء بدون أن يتكلف لهم، وليس عليه مسئولية ما وراء ذلك ما دام قد أدى وبلغ وسوي بين الجميع في البلاغ.

٦-أنه ينبغي لحامل القرآن أن يكون صاحب خلق كريم في أقواله وأفعاله، وأن يقتدي بالملائكة الكرام في طاعته لربه -سبحانه وتعالى-ويكون على درجة كبيرة من العلو والرفعة، وعلى كل صاحب رسالة هادفة، ومطلب شريف، أن يقتدي في تحقيق أهدافه، وبلوغ مطالبه، بالملائكة الكرام.

٧-أن الإماتة جعلها الله -عز وجل-من النعم " لأنها وصلة في الجملة إلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم"، "ولأنه لو دام الإنسان حيًا مع ما يصل إليه من الضعف والخوف لكان في غاية البشاعة والشماتة، وأن الإقبار من النعم التي امتن الله -عز وجل-بها على ذلك الإنسان، حيث جعل له قبراً يوارى فيه، تكرمة له، ولم يجعله مطروحًا على الأرض، يستقذره من يراه، وتقتسمه السباع، وتمزقه مخالب الطير والكلاب وسائر الحيوان.

٨-أن المقصود الأعظم من ذكر الأنواع المختلفة من الأطعمة في سورة (عبس) هو التقريع لكل من جحد نعم الله -عز وجل-وأنكرها، مع ضخامة تلك النعم وكثرتها وعدم انقضائها، وللإشارة إلى أن جميع الخلق يعجز عن شكرها والوفاء بحقها.

٩-أظهرت الآيات النتيجة الحتمية-نتيجة الميزان-لمن تم الحديث عنهم في بدايات السورة (الكافر والمؤمن)؛ حيث قرر مطلع السورة حقيقة الميزان، وهي التفاضل بالتقى، وجاءت خاتمتها لتقرر النتيجة. وبذلك يتناسق المطلع والختام، ويعود آخرها على أولها فيمن يستحق الإعراض عنه ومن يستحق الإقبال عليه. والله أعلم.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم الشيباني. "أسد الغابة في معرفة الصحابة". تحقيق علي محمد معوض. (ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ).

٢- ابن عادل، عمر بن علي. "تفسير اللباب". (بيروت، دار الكتب العلمية).

٣- ابن عاشور، محمد الطاهر. "التحرير والتنوير". (تونس، الدار التونسية، ١٩٨٤م).

٤- ابن عثيمين، محمد ين صالح، "تفسير القرآن الكريم".(ط٣، دار الثريا للنشر، ١٤٢٤ هـ.).

٥- ابن عطية، عبد الحق بن غالب. "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز". تحقيق عبد السلام عبد الشافي. (ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢ هـ.).

٦- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، "تفسير القرآن العظيم". تحقيق سامي سلامة. (ط٢، دار طيبة للنشر، ١٤٢٠ هـ.).

٧- أبو السعود، محمد بن مصطفى، "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم". (بيروت، دار إحياء التراث العربي).

٨- أبو بكر الجزائري، جابر بن موسى."أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير". (ط٥، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكمة، ١٤٢٤ هـ).

٩- أبو حيان، محمد بن علي، "البحر المحيط في التفسير". تحقيق صدقي محمد جميل. (ط١، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٠ هـ.).

١٠- الأصفهاني، الحسين بن محمد. "المفردات في غريب القرآن". تحقيق صفوان الداودي. (ط١، دمشق، دار القلم، الدار الشامية، ١٤١٢ هـ).

١١- الألباني، محمد ناصر الدين. "سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها". (ط١، الرياض، مكتبة المعارف).

١٢- البغوي، الحسين بن مسعود. "معالم التنزيل في تفسير القرآن". تحقيق عبد الرزاق المهدي. (ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠ هـ.).

١٣- البقاعي، إبراهيم بن عمر. "مصاعد النظر للأشراف على مقاصد السور". (ط١، الرياض، مكتبة المعارف، ١٤٠٨ هـ.).

١٤- حبنكة، عبد الرحمن حسن. "معارج التفكر ودقائق التدبر". (دمشق، دار القلم).

١٥- حوى، سعيد. "الأساس في التفسير". (ط٦، القاهرة، الناشر دار السلام، ١٤٢٤ هـ).

١٦- الخطيب، عبد الكريم يونس، "التفسير القرآني للقرآن". القاهرة، دار الفكر العربي).

١٧- د. شحاته، عبد الله محمود. "أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم". (الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٩م).

١٨- الرازي، محمد بن عمر. "مفاتيح الغيب". (ط٣، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠ هـ).

١٩- الزحيلي، د. وهبه بن مصطفى، "التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج". (ط٢، دمشق، دار الفكر المعاصر، ١٤١٨ هـ).

٢٠- الزمخشري، محمود بن عمرو. "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل". (ط٣، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧ هـ).

٢١- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. "تيسير الكريم المنان في تفسير كلام المنان". (ط٣، الرياض، مكتبة الرشد، ٢٠٠١م).

٢٢- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. "أسرار ترتيب القرآن الكريم". (دار الفضيلة للنشر والتوزيع).

٢٣- شرف الدين، جعفر. "الموسوعة القرآنية، خصائص السورة". تحقيق عبد العزيز التويجري. (ط١، بيروت، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ١٤٢٠ هـ).

٢٤- الشنقيطي، محمد الأمين، "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن".(بيروت، دار الفكر، ١٤١٥ هـ).

٢٥- الشوكاني، محمد بن علي. "فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير". تحقيق:

يوسف الغوش. (ط٢، بيروت، دار المعرفة، ١٤٢٥ هـ).

٢٦- الطبري، محمد بن جرير."جامع البيان في تأويل القرآن". (ط٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م).

٢٧- طنطاوي، محمد سيد. "التفسير الوسيط". (ط١، مصر، دار نهضة مصر، ١٩٩٧م).

٢٨- القرطبي، محمد بن أحمد. "الجامع لأحكام القرآن". تحقيق أحمد البردوي. (ط٢، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٣٨٤ هـ).

٢٩- الكرماني، محمود نصر." أسرار التكرار في القرآن". تحقيق عبد القادر أحمد. (دار الفضيلة).

٣٠- لطيف، د. وسن محمود. "محاور الخطاب القرآني في سورة عبس". مجلة مداد الأدب، ٧، (٢٠١٠م): ١٠٢.

٣١- المحمود، عمر بن عبد العزيز. "جماليات التركيب والإيقاع في سورة (عبس)". مجلة العلوم العربية، ٣٥، (١٤٣٦ هـ): ٢٤٧.

٣٢- مسلم، مصطفى مسلم. "مباحث في التفسير الموضوعي". (ط٧، دمشق، دار القلم، ١٤٣٠ هـ).

٣٣- مسلم، مسلم بن الحجاج. "صحيح مسلم". تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. (بيروت، دار التراث العربي).

٣٤- نخبة من علماء التفسير. "التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم". (ط١، جامعة الشارقة، ١٤٣١هـ).

٣٥- النيسابوري، الحسن بن محمد. "غرائب القرآن ورغائب الفرقان". تحقيق زكريا عميران. (ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٦ هـ).

Index of Sources and Reference

The Holy Quran

Ibn Al-Atheer, Ali Bin Abi Al Karam Al-Shaibany. "The Lion of the Forest in Companions Identification ". Investigation by Ali Mohamed Moawadh. (T 1, Beirut, Scientific Books House, 1415H).

Ibn Adel, Omar Ibn Ali " Lubab Interpretation" (Beirut, Scientific Books House).

Ibn Ashour, Muhammad al-Taher "Liberation and Enlightenment". (Tunisia, Tunisian House, 1984).

Ibn Uthaymeen, Muhammad Yin Salih, “The Interpretation of the Noble Qur’an.” (3rd Edition, Dar Al Thuraya Publishing, 1424H.).

Ibn Attia, Abdul Haq Bin Ghalib. Al-Wajeez editor in the interpretation of the dear book. Investigation by Abdel Salam Abdel Shafi. (I 1, Beirut, Scientific Books House, 1422H.).

Ibn Katheer, Ismail bin Omar, "Interpretation of Holy Qur'an". Investigation by Sami Salameh. (I 2, Dar Taiba Publishing, 1420H.).

Abu Al-Saud, Muhammad bin Mustafa, "Guiding a sound mind to the merits of the Holy Book." (Beirut, House of Revival of the Arab Heritage).

Abu Bakr al-Jaza’iri, Jaber ibn Musa. “The easiest interpretations of the words of Allah.” (5th floor, Al Madinah Al Munawarah, Library of Science and Wisdom, 1424H.).

Abu Hayyan, Muhammad bin Ali, "The Ocean in Interpretation". Investigated by Sidqi Muhammad Jamil. (T 1, Beirut, Dar Al-Fikr, 1420H.).

Al-Isfahani, Al-Hussein bin Muhammad. Vocabulary in Qur'an. Investigated by Safwan Daoudi. (I 1, Damascus, Dar Al-Qalam, Al-Shamiya House, 1412H.).

Al-Albani, Muhammad Nasir al-Din. A series of authentic hadiths and some of their jurisprudence and benefits. (T 1, Riyadh, Knowledge Library).

Al-Baghawi, Al-Hussein bin Masoud. The characteristics of the download in the interpretation of the Qur'an. Investigation by Abdul Razzaq Al-Mahdi. (I 1, Beirut, House of Revival of Arab Heritage, 1420H.).

Al-Buqa'i, Ibrahim bin Omar. Viewing elevators to supervise the purposes of the fence. (T 1, Riyadh, Knowledge Library, 1408H.)

Habanka, Abdel Rahman Hassan. "The Ascendants of Contemplation and the Minutes of Contemplation". (Damascus, Dar Al-Qalam).

Hawwa, happy. The basis of interpretation. (6th Edition, Cairo, publisher Dar Al Salam, 1424H.).

Al-Khatib, Abdul Karim Younis, "The Qur'anic Interpretation of the Qur'an". Cairo, Arab Thought House).

Dr.. Shehata, Abdullah Mahmoud. The aims and objectives of each surah in the Holy Qur'an. (General Book Authority, 1979).

Al-Razi, Muhammad bin Omar. Unseen Keys. (3rd Edition, Beirut, House of Revival of Arab Heritage, 1420H.).

Al-Zuhaili, Dr. Wahba bin Mustafa "The Enlightening Interpretation in Creed, Sharia and Method." (I 2, Damascus, House of Contemporary Thought, 1418H.).

Al-Zamakhshari, Mahmoud bin Amr "Revealing the Truths of Mysteries Download". (3rd Edition, Beirut, Dar Al-Kitab Al-Arabi, 1407H.).

Al-Saadi, Abdul Rahman bin Nasser "Facilitating the Karim Al-Mannan in the interpretation of the words of Al-Mannan". (3rd Edition, Riyadh, Al-Rushd Library, 2001).

Al-Suyuti, Abdul Rahman bin Abi Bakr "Secrets of the arrangement of the Holy Qur'an". (Dar Al-Fadhila for Publishing and Distribution).

Sharaf Uddin, Jaafar. "The Qur'anic Encyclopedia, Characteristics of the Surah". Investigation by Abdulaziz Al-Tuwaijri. (1st Edition, Beirut, Dar Al-Taqreeb between the Islamic Schools, 1420H.).

Al-Shanqiti, Muhammad Al-Amin, "The Lights of the Statement in Clarifying the Qur'an with the Qur'an." (Beirut, Dar Al-Fikr, 1415H.).

Al-Shawkani, Muhammad bin Ali "Fath Al-Qadeer Al Jamea between the art of narration and the know-how from the science of interpretation. Investigation: Youssef Al-Ghosh. (2nd ed., Beirut, Dar al-Maarifa, 1425H).

Tabri, Muhammad bin Jarir. Jami` al-Bayan fi Interpretation of the Qur'an. (3rd Edition, Beirut, Scientific Books House, 1999).

Tantawy, Mohamed Sayed " Intermediate interpretation. (I 1, Egypt, Dar Nahdet Misr, 1997).

Al-Qurtubi, Muhammad bin Ahmed "The Collector of the Rulings of the Qur'an". Investigated by Ahmed Al-Bardawi. (I 2, Cairo, Egyptian Book House, 1384H.).

Al-Kirmani, Mahmoud Nasr. "Secrets of Repetition in the Qur'an". Investigated by Abdul Qadir Ahmed. (House of Virtue).

Nice, Dr. Wasn Mahmoud. Themes of the Qur'anic discourse in Surat Abs. (Medad Al-Adab Magazine, 7th Edition).

Mahmoud, Omar bin Abdulaziz. "The aesthetics of composition and rhythm in Surat (Abs)". (Journal of Arab Sciences, Issue 35, 1436H.).

Muslim, Mustafa Muslim "Examinations in Objective Interpretation". (T7, Damascus, Dar al-Qalam, 1430H.).

Muslim, Muslim bin Al-Hajjaj "Sahih Muslim". Investigation by Mohamed Fouad Abdelbaqi. (Beirut, Arab Heritage House).

Elite scholars of interpretation "The Objective Interpretation of the Surah of the Noble Qur'an". (1st floor, University of Sharjah, 1431H.).

Al-Nisabory, Al-Hassan bin Muhammad "The miracles of the Qur'an and the Desires of the Furqan". Investigated by Zakaria Omran. (T 1, Beirut, Scientific Books House, 1416H,).

فهرس موضوعات البحث

المحتويات

الملخـــص ٢٣٩

المقدمـــة ٢٤١

التمهيد: سورة عبس لمحة تعريفية شمولية ٢٤٥

المبحث الأول: المطلع وحسن العتاب ٢٥٢

المبحث الثاني: آيات القرآن الكريم بين جلال القدر وحكمة التنزيل ٢٦٣

المبحث الثالث :الطبيعة الإنسانية والدعوة إلى التأمل والاعتبار ٢٦٨

المبحث الرابع: الإنسان في القيامة بين دلائل الوجوه وهول الفرار..... ٢٧٨

الخاتمـــة ٢٨٤

فهرس المصادر والمراجع ٢٨٦

فهرس موضوعات البحث ٢٩٢